عرفان السيِّد ابن طاووس
دراسةٌ تحليليَّةٌ في الأفكار العرفانيَّة
للسيِّد ابن طاووس (القسم الأوَّل)

الدكتور محمَّد هادي فلاح

ترجمة : أيُّوب ناصر نعمة

مراجعة : أ.د عليّ عبَّاس الأعرجيّ

مركز تراث الحِلَّة

The Mysticism of Sayyid Ibn Tawus
An Analytical Study of Sayyid Ibn Tawus›s Mystical Thoughts (Part One)

Dr. Muhammad Hadi Falah

Translated by: Ayyub Nasser Ne›mah

Reviewed by: Prof. Ali Abbas Al-Araji

Hilla Heritage Center

القسم الأوَّل

الفكر العرفانيّ

الفصل الأوَّل

العرفان العلميّ

١ - مدخل

نسعى في هذا القسم إلى بيانِ المفاهيم المتعلِّقة بالعِرفان، وهي على النَّحو الآتي: ما العرفانُ؟ وما أبعادُه العلميَّة والعمليَّة في فكر السيِّد ابن طاووسٍ؟.

١-١. ما العرفان؟

نلاحظ في آثار السيِّد ابن طاووس استعماله للفظ (عرف) ومشتقَّاتها، مع أنَّه لم يُعرِّف (العرفان)، و(العارف) بتعريفٍ خاصٍّ؛ فهو لم يصرِّح بذلك في أسفاره.

قال بعض المحقِّقين في هذا السياق: «مع أنَّ ابن طاووس لم يعرضْ عقائده بنحوٍ منظَّم في جميع آثاره، ولكن يمكن رصدُ ذلك بوضوحٍ عبر ما كتبه في مسفوراتِه؛ فإنَّه يدورُ في المسائل المهمَّة في فلك الفكر الشيعيّ الإماميّ الاثني عشريّ»[1].

(١) كتابخانه ابن طاووس وأحوال وآثار أو (كلبرگ، اتان): ٤٥.

ولكن ثمَّة ملاحظة ينبغي الإشارةُ إليها: عبر متابعة ما جاء في آثار السيِّد، يمكن أن نحصل على رسم صورة حول العرفان، والعارف في نظر السيِّد.

فيمكن أن نفهم العرفان في نظر ابن طاووس بأنَّه: معرفة ذات الله، وصفاته، وأفعاله[1].

وأيضًا: إنَّ الأملاك، والممتلكات بالحقيقة لله ﷻ[2].

وأنَّه يرى الطرائق الفطريَّة لمعرفة الحقيقة أقرب من الطرائق الكسبيَّة، والنظريَّة[3].

ويعتقد أن يقوِّي الإنسان ما عنده من فطرة بالتَّنبيهات العقليَّة، والنقليَّة: «أوصيك يا ولدي محمَّد ومَن بَلَغه كتابي هذا ممَّن يعلِّم المُسترشدين إلى معرفة ربِّ العالمين، أن يقوِّي ما عندهم في الفطرة الأوَّليَّة بالتَّنبيهات العقليَّة، والقرآنيَّة، والهدايات الإلهيَّة، والنبويَّة..»[4].

(١) مهج الدعوات ومنهج العبادات: ١/ ٢.

(٢) لا بأس بنقل عبارته: «واعلم يا ولدي أنَّني كنت أشتري هذه المليكات بالله ﷻ، ولله ﷻ، بنيَّة أنَّ الأملاك وأنا والأثمان كلُّنا ملك لله ﷻ، هذا الذي اقتضاه العقل والنقل، أنَّ العبد لا يملك مع مولاه، وإنَّما كلَّما ملَّكه شيئًا، فهو مجاز، وحقيقة التملُّك لمن أنشأه وأعطاه. وعلمت أنَّني إذا اشتريته بهذه النيَّة، فإنَّ كلَّما يُنفِق أحد منه، أو يخرج عنه، فهو محسوب في ديوان معاملته ﷻ، المرضية في حياتي وبعد وفاتي، وذخيرة عند الله ﷻ لي لأوقات ضروراتي». كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٨١، وأيضًا: «إنَّ كلَّ ملك وسلطان إذا بالغ مع مملوكه في الإحسان، أدخله حضرة وجوده، وشرَّفه تارةً في الإذن له في الخطاب، وتارةً بالجواب.
وَلَقَدْ كَانَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ يُكْثِرُ الْخَلَوَاتِ، فَقِيلَ لَهُ: أَمَا تَسْتَوْحِشُ لِمُفَارَقَةِ الْأَهْلِ وَالْجَمَاعَاتِ؟ فَقَالَ: أَنَا جَلِيسُ رَبِّي، إِنْ أَحْبَبْتُ أَنْ يُحَدِّثَنِي تَلَوْتُ كِتَابَهُ، وَإِذَا أَحْبَبْتُ أَنْ أُحَدِّثَهُ دَعَوْتُهُ، وَكَرَّرْتُ خِطَابَهُ». فلاح السائل: ٦. (م).

(٣) راجع: كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٦٨.

(٤) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٦٨.

ويرى طرائق معرفة الله تعالى غير محدودةٍ، ولا تنحصر في أدوات معارف الإنسان(١).

وخصوصيَّةٌ أُخرى للمعرفة في نظَر السيِّد، هي: عطاءٌ، ومنَّةٌ منَ الله عزَّ وجلَّ(٢).

وبعبارةٍ أُخرى: العرفان عند السيِّد هو التَّجلِّي، والكشْف، والشُّهود، وهو خارجٌ عن قدرة الإنسان، ولا يكون إلَّا بعناية، وتذوُّق من الله تعالى(٣).

ومن خصائص المعرفة عند ابن طاووس: أنَّها لا يُعرف وقتُها، ومتى تحصَلُ للفرد:

«وممَّا يدلُّك يا ولدي على أنَّ معرفة الله جلَّ جلالُه من جُوده؛ لتطلبَها من باب الوِفادة عليه مع وفودِه، أنَّك تجد أكثرَ العارفين لا يعرفون وقت معرفتِهم به جلَّ جلالُه، ولا يوم ذلك، ولا ليله، ولا شهره، ولا سنته»(٤).

ومن خصائص المعرفة عنده أنَّ الله عزَّ وجلَّ هو من يعطي الأهليَّة، والاستعداد للإنسان كي يعرِّفَه بقدرته، وعبرها يترقَّى(٥). «إنَّ المعرفة بالله جلَّ جلالُه، سواء كانت من الله جلَّ جلالُه، أو من العبد، أو منهما، فإنَّما يكون الثَّوابُ على استمرار العبد عليها، ولزوم ما يُراد منه بها، ولها»(٦).

(١) لاحظ: كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٥٦.
(٢) راجع: كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٣٩، ٥٤.
(٣) ونصُّ عبارته: «فلم تقم القوَّة البشريَّة بمكاشفة الجلالة الإلهيَّة، وإيَّاك يا من لا تعرف حقيقة ذلك أن تستبعده، أو يجعل الشيطان في تجويز الذي رويناه عندك شكًّا، بل كن به مصدِّقًا، أما سمعت الله جلَّ جلالُه يقول: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾.
فلاح السائل: ١٠٨. (م)
(٤) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٥٥.
(٥) لاحظ: كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٧٦.
(٦) المصدر نفسه: ٥٧.

ومعه فالمعرفة بنظرِه: الالتزام بالشَّـريعة، والتَّكاليـف الشرعيَّة[1]؛ حتَّى يصل إلى مقام: «أنَّ العبد لا يملك مع مولاهُ، وإنَّما كلَّما ملَّكه شيئًا فهو مجازٌ، وحقيقة التَّملُّك لمن أنشأه، وأعطاهُ»[2].

وفي ضـوء ما تقدَّم؛ فالعِرفان عند السـيِّد ابن طاووس: معرفـة ذات الله، وصفاته وأفعالـه، ويحصـل عن طريـق الفِطـرة، والوحي، والأنبيـاء، والأوصيـاء عليهم السلام بعلمِه، وقدرتـه جلَّ جلاله، وأنَّه يعتقد مـن أنَّ العِرفان عطيَّةٌ من الله تعالى، من دون تحدُّدٍ بزمانٍ، وهو من يعطي الأهليَّة، والاستعداد للإنسان، وعبر المعرفة، والالتزام بالشَّـريعة، حتَّى يصلَ إلى الرُّؤية الكونيَّة التَّوحيديَّة، والتقرُّب إلى الله عزَّ وجلَّ.

١-٢. الأبعاد العلميَّة والعمليَّة العرفانيَّة في فكر السيِّد

لعـلَّ مـن أسـهل طرائـق التعـرُّف إلى أحـد العُلـماء في مجـالٍ بعينـهِ، هـو معرفة الأبعـاد العلميَّـة، والعمليَّـة في ذلـك المجـال، والسـيِّد ليس بدعًـا من هذا السِّـياق، وفي هـذا القسـم نحـاول أن نطَّلِعَ عـلى الأبعـاد العلميَّـة، والعمليَّة العرفانيَّـة في فكر السيِّد.

ونلاحظ ما سطَره السيِّد في آثاره من الأبعاد العلميَّة، والعمليَّة العرفانيَّة الإسلاميَّة، وعلى أسـاس ذلك ألَّف كتبَه، ويمكن معرفةُ منهجِه في طرح جُملة من المسـائل العلميَّة، والعمليَّة في العرفان الإسـلاميّ، وأنَّـه يمكن القول إنَّ هرمَ الفكر العرفانيّ للسـيِّد هو القُـدرة عـلى الإطـلاق، والمالك الحقيقيّ، وهـذه العقيـدة تُلاحَظُ بكثـرةٍ، وإصرارٍ في مسـفُوراتِه؛ فهو يرى أنَّ كلَّ ما عدا الله تعالى مقهورٌ، ومالكٌ لهُ، والإنسان في التَّحقيق، ملكُه.

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٥٧.
(٢) المصدر نفسه: ١٨١.

«إنَّ العبدَ لا يملك مع مولاهُ، و إنَّما كلَّما ملَّكهُ شيئًا فهو مجازٌ، وحقيقةُ التملُّك لمن أنشأهُ، و أعطاهُ»[1].

«واعلمْ أنَّك على التَّحقيق ملكُه، وما في يدك ملكُه، وهو أحقُّ بحفظِ ملكِه منك»[2].

وتُعدُّ هذه المسألة من المسائل المهمَّة في العرفان الشيعيّ، وكانت تمثِّل أهميَّةً بين عرفاء القرن السابع الهجريّ؛ فنقرأ ما كتبه الشيخ الأكبر محي الدين (ت٦٣٨هـ) في كتابه الفتوحات: «وسمَّيتها رسالة الفتوحات المكيَّة في معرفة أسرار المالكيَّة، والملكيَّة»[3].

ونلاحظ في آثار السيِّد، وفكره من أنَّ أقصر الطرائق للإنسان منحصرٌ في معرفة العبادة، والصراط المُستقيم.

«فالعقول السَّليمة مشغولة بما لزِمَها بمعرفتِه من حقِّ إنشائه، وتربيته، وهِدايته»[4].

«هل كان للألباب عدولٌ عن هذا الباب؟»[5].

ويعتقد السيِّد في هذا السير السلوكيّ أنَّ منهجه السُّؤال، بمعنى: السُّؤال، والدُّعاء والمُناجاة لواجب الوجودِ؛ فكلُّ شيءٍ عنده؛ بل ومنه، وأنَّه يرى أنَّه يمكن للإنسان الوصول من دون طلبٍ، وسؤالٍ بفضلِه، وعطائه تعالى[6]، وأمَّا إذا طلب من الله تعالى

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٨١.
(٢) المصدر نفسه: ١٧٩.
(٣) الفتوحات المكيَّة ١/ ١٠.
(٤) فلاح السائل: ٦.
(٥) المصدر نفسه: ٥.
(٦) كما ورد في الدعاء: «يَا مَنْ يُعْطِي الْكَثِيرَ بِالْقَلِيلِ، يَا مَنْ يُعْطِي مَنْ سَأَلَهُ، يَا مَنْ يُعْطِي مَنْ لَمْ=

فـلا شـكَّ أنَّه يعطيه، ولا يمكن طيّ هذا الطَّريق من دون المـددِ مِنهُ تعالى، والإدلاء من الأنبياء، والأوصياء (صلوات الله عليهم).

وممَّا سـجَّله السـيِّد من أنَّ الأهداف، هي: الكمالُ، والنَّجـاةُ للوصول إلى رِضا الله تعالى، ومنها معرفة ذاتِه تعالى، وصفاتِه، والتقرُّب بالسُّلوك إلى كمال النَّجاةِ.

«وأن أسأل الله أن تجتمِعَ في دوام العزِّ، والإقبال، والجاه، وكمال النَّجاة»[1].

وأنَّـه عدَّ السُّـجودَ من علامـات القُرب الإلهـيّ: «فجعل السُّـجود من علامات القُرب إلى علَّام الغُيوب؛ فطالِبْ نفسَـكَ بأنَّها تجد عند السُّـجود مـا يجدُ المحبُّ بقُرب المحبوب»[2].

ويضيف في بيان المباني النظريَّة ذات الصِّلة بالدُّعاء، مملوكيَّة العبد، ومالكيَّة الربِّ، وقاهريَّته تعالى، وأنَّه يُشـير إلى التَّعاليم الأُخرى لأهـل البيت عليهم السلام، ولكن في آثار دعائه يبيِّن مبانيه العلميَّة للدُّعاء، والعِبادة، ومثالٌ على ذلك يتوقَّف على اختيارٍ منه تعالى، عبر ثلاث طرائق:

- على لسان رسله (على نبيِّنا وآله وعليهم السَّلام).
- على لسان ملائكتِه.
- على لسان خاصَّتِه.

«فهذا طريقة عن العالم بالغائبات على لسـانِ رسُله عليهم السلام، وعلى لسانِ ملائكته، ومَن شاء من خاصَّته، عليهم أفضل الصَّلوات»[3].

=يَسْأَلْهُ، وَمَنْ لَـمْ يَعْرِفْهُ؛ تُـحَنُّنًا مِنْهُ وَرَحْـمَةً». إقبال الأعمال: ٢/ ٦٤٤. (م)

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٢١٦.

(٢) فلاح السائل: ١١١.

(٣) إقبال الأعمال: ١/ ٢٩، مهج الدعوات ومنهج العبادات: ٦٩، الطرائف: ٢/ ٤٥١.

ونطالع في فكر السيِّد أنَّ العُمدة عنده العملُ الذي يترشَّح منهُ البعد العمليّ العرفانيّ، وما نلاحظُه في كتابته حول العرفان النظريّ؛ فهو بمنزلة المقدِّمة التي تقع في تشكيلة نِظامه، وفكرِه، وما عدا ذلك يقع في نطاق العِرفان العمليّ[1].

ويعتقدُ أنَّ العبادة تحلُّ المشكلات العقليَّة، «متى اشتبه عليك شيءٌ من نتائج العقول؛ فالزمِ الصَّومَ، والخِلوةَ، والتَّذلُّلَ للقادر جلَّ جلالُه على كلِّ مأمول؛ فإنَّك تجده جلَّ جلالُه كاشفًا لك ما اشتبه عليك، وباعثًا إلى عقلك، وقلبك من أنوار هدايته ما يفتح أبواب الصَّواب لديك»[2].

ويُعدُّ منهجُه في كتابه (كشف المحجَّة) رسالةَ سُلوكٍ عمليّ، كما صرَّح به[3].

ويؤيِّد هذا المعنى من الأهميَّة، والهداف ما كتبه من كتب في الأدعية[4].

وأنَّه ابتعد عن الفتوى، والمناصب المُقترحة عليه بمُقتضى بُعده العرفانيّ العمليّ[5].

ويمكن التعرُّف إلى السيِّد ابن طاووس في بُعده العلميّ، أو العمليّ العرفانيّ عبر إنشائه الدعاءَ، وما يدعم هذا الادِّعاء ما يقولُه في المضمون الكلِّيّ، والإجماليّ لأدعية أهل البيت عليهم السلام:

«اعلمْ أنَّ في هذه القنوتات إشاراتٍ منهُم عليهم السلام إلى ما كانتْ حالتهم عليه في تلك الأوقات، وإلى معرفتهم بما يتجدَّد بعدَهم، من تأخيرِ دولتِهم، وإظهار التَّألُّم من دفعهم

(١) لاحظ: كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٤٢.
(٢) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٧٢.
(٣) راجع: كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٤٧.
(٤) يُنظر: كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٤٢، ٢٧٧.
(٥) يراجع: كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٦٥.

عـن إمامتهم، وعن فرض طاعتِهم، وفيها من الأسـرار ما قد دلُّوا عليه كثيرًا من ذوي الأبصار»[1].

وتخبرنا عن سـيرهِ العمليّ، وعناياته المُختلفة، والأبعاد العلميَّة، والعمليَّة العرفانيَّة للسـيِّد مـا أورده مـن الأدعية لابنه محمَّـد في الفُصول مـن كتاب (المحجَّـة) في بدايتِه، ووسطِه، وما تمنَّاه لهُ[2].

ونُشـير هنا إلى جملةٍ مـن أدعيتِه تتعلَّقُ بالمعرفة، والفِقه، وذكـر الله تعالى، والقُرب، والطَّهارة، والإخلاص.

«أريد من الله جل جلاله أن يلهمَك، ومنكَ أن تُقبل من إلهامه، وأن تتعلَّمَ الفقهَ الذي فيه السَّبيل إلى معرفة الأحكام الشرعيَّة، وإحياء سنَّة جدِّك المحمَّديَّة، ويكون قصدُك بذلك امتثال أمر الله جل جلاله في التَّعليم، وسُلوك الصِّراط المُستقيم»[3].

«حفـظ الله جل جلاله فيكَ عنايتَـه بآبائك الطَّاهرين، وسَـلَفك الصَّالحين، وسـلكَ بهم كامل سبيلهم القويّ المكين»[4].

«جمَّلـك الله جل جلاله بتـمام الأوصـاف، وكـمال الألطـاف، عـلى معرفـة الله جل جلاله، ومعرفـة جـدِّك محمَّـد صلى الله عليه وآله، ومعرفـة عترتـه القائمـين مقامَـه في حفـظ تأويـل كتـاب ربِّـه، وحفـظ شريعتـه، وحفـظ مـا يحتـاج الإسـلام إلى حفـظ مقالـه، وفعاله»[5].

(١) مهج الدعوات ومنهج العبادات: ٤٩.
(٢) راجع: كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٨٨.
(٣) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٨٤.
(٤) المصدر نفسه: ١٧٦.
(٥) المصدر نفسه: ١٤١.

«ملأَ الله ﷻ عقلَك، وقلبَك من التَّصديق لأهل الصِّدق، والتَّوفيق في معرفة الحقِّ»(١).

«ثبَّتك الله ﷻ على طريق الإخلاص، وأثبت اسمَك في ديوان أهل الاختصاص»(٢).

«ذكَّرك الله ﷻ بمواهبِه، ونوَّر سرائرَك بعجائبه، ومناقبِه»(٣).

«أغناك الله ﷻ بتذكارِه، وأنوارِه، وجعل إيثارَك متابعًا لإيثاره»(٤).

«أودعَ اللهُ ﷻ سرائرك أنوار المكاشفة وديعة مستقرَّة مُتضاعفة»(٥).

«كشفَ الله ﷻ لك عن مُراده بيد كمال إسعاده، وإنجاده، وإوفاده»(٦).

«ألهمكَ الله ما يريدُه منك، ويرضى بهِ عنك»(٧).

«طهَّر اللهُ ﷻ في تطهير سرائرك من دنس الاشتغال بغيرِه عنه، وملأها بما يقرِّبُك منه»(٨).

«زكَّاك اللهُ ﷻ بتطهيرك من الذُّنوب، والعيوب، وتجميلك بأداء الواجب، والمندوب»(٩).

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٢١١.
(٢) المصدر نفسه: ٢٠٣.
(٣) المصدر نفسه: ١٤٩.
(٤) المصدر نفسه: ١٤٨.
(٥) المصدر نفسه: ١١٩.
(٦) المصدر نفسه: ١٠٨.
(٧) المصدر نفسه: ١٠٤.
(٨) المصدر نفسه: ١٥٧.
(٩) المصدر نفسه: ١٩٨.

٢- طرائق الوصول إلى المعرفة (مراتب المعرفة)

المُراد من طرائق الوصول إلى المعرفة التي تعدُّ من أهمِّ مسائل ما يُطلق عليه في عصرنا بـ(نظريَّة المعرفة)، ويُعدُّ هذا الاصطلاح جديدًا نسبيًّا؛ إذْ لم يكن مُستعملًا في ما سبق.

نعم، جملةٌ من مسائلها كان متداولًا، ومنها: طرائق الوصول إلى المعرفة التي نلاحظُها في آثار السيِّد، ويمكن بنحوٍ عامٍّ تقسيمُها في نظر السيِّد على قسمَينِ:

١. طريق من دون واسطة.

٢. طريق مع الواسطة.

والمُراد من الطريق الذي من دون واسطةٍ، هو طريق الفطرة، والكشف والشهود.

والمقصود من الطريق مع الواسطة، هو طريق النقل، والعقل.

وفي ضوء هذا التقسيم تضحى المعرفةُ متفاوتةً بنظر السيِّد، وعليه يكون عندنا تقسيمٌ رباعيٌّ لطرائق المعرفة، مع أنَّنا نحتاج طريقَ الكشف، والشُّهود في هذا الكتاب أكثر، وسنشيرُ إلى هذا التَّقسيم:

أ. طريق الفِطرة.

ب. طريق الكشف، والشهود.

ج. طريق النَّقل.

د. طريق العقل.

نوضِّح هذه الطرائق، بنحوٍ مُختصرٍ، بحسب التَّرتيب المتقدِّم.

أ. الطَّريق الأوَّل: الفِطرة

يُعـدُّ طريق الفطرة للمعرفة مـن أوائل الطرائق[1]، وهو موجود في نظام الإنسـان حضوريًّـا، وهو قابل للشـدَّة، والضَّعـف، ولا يحتاج إلى تعليمٍ، وتعلُّـمٍ؛ فهذا الإدراك لا يختصُّ بزمانٍ دون زمانٍ، وبقومٍ دون قومٍ؛ بل هو موجودٌ في الإنسـان من بدء حياتِه إلى زمانِنا هذا، وبعده، وأنَّ الفطرة لا تبديلَ لها، وإن أمكن خفاؤها.

وهـذا النَّحـو مـن المعرفـة، هو مرتبـةٌ من مراتـب العلـم الحضوريّ بـذات الله، وصفاتـه ﷻ، وهذا الطَّريق بين الإنسـان والله، ولا واسـطةَ في البـيْن؛ ولذا فهو أخصرُ الطرائق، وبنحو مباشرةٍ يصل إلى المقصود، ويسمِّيه السيِّد: «فطرة الأوَّليَّة»[2]، و«الفطرة الأوَّليَّة»[3].

ويفترض السـيِّد بالمعرفة أن تكون سـهلةً، وقريبةً، وبعيدةً عـن المخاطر، وهذا ما توفِّره المعرفة الفطريَّة:

«اعلـمْ أنَّني وجـدتُ تدبـير الله ﷻ لمصالح عبادِه مـا ليس هو عـلى مُرادهمْ؛ بل هـو على مـرادِه، وما ليس هو على الأسـباب الظَّاهرة لهم في المكـروه، والمأمول؛ بل هو لمـا يعلمه الله ﷻ مـن مصالحهم التي لا يعلمونهـا، أو أكثرها إلَّا مـن جانبه ﷻ، ومن جانب الرسـول ﷺ، ولو كان العقل كافيًا في الاهتِداء إلى تفضيل مصالحهم؛ لما وجبَتْ بعثـةُ الأنبيـاء، حتَّى أنَّ في تدبير الله ﷻ في مصالح الأنام مـا يكاد ينفرُ منه كثيرٌ من أهل الإسـلام؛ فلمَّا رأيتُ تدبيري ما هو على مرادي، ولا على الأسباب الظَّاهرة في معرفتي، واجتهادي، وعرفتُ أنَّني لا أعرفُ جميع مصلحتي بعقلي، وفِطنتي؛ فاحتجتُ إلى تحصيل

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٦٨.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه: ٥٤.

سعادتي في دُنياي، وآخرتي إلى معرفة ذلك ممَّن يعلمه ﷻ، وهو علَّام الغُيوب، وتيقَّنتُ أنَّ تدبيرَهُ لي خيرٌ من تدبيري لنفسي، وهذا واضحٌ عند أهل العقول، والقُلوب»[1].

ب. طريق الكشف، والشُّهود

تقدَّم آنفًا أنَّ الفِطرة هي طريق من دون واسطةٍ، وهي تمثِّل المرحلة الأولى، ورأس المال لجميع النَّاس، وأمَّا المرحلة الراقية والعالية بواسطة العبادات، والأعمال الصَّالحة، مع تكامل النَّفس، وتتمركز حول التفات القلب بساحة القدس الإلهيّ ما يحصل للأوحديّ من النَّاس.

ويُعدُّ أهل العرفان أهمَّ طريق للمعرفة في العرفان، هو القلب، وتسمَّى هذه المعرفة الفطريَّة، الشهوديَّة، القلبيَّة.

ويعتقد السيِّد أنَّ الفطرة تؤخذ من المعرفة؛ فهي طبيعيَّة، وقريبة، وحضوريَّة، ولا تحتاج إلى مؤونة زائدة، وليس فيها خطرٌ.

ويعدُّ هذا النَّحوَ من المعرفة، مع أنَّها مع الواسطة، لكنَّها متساويةٌ، هي عطيَّة منَ الله تعالى؛ لأنَّ كلَّ ما حصل جميعها منه تعالى:

«الله ﷻ الذي عطف على أوليائه، وخاصَّته، ولطفَ لهم بما أراهم من أسرار ملكوته، ومملكته، وكشفَ الحُجُبَ بينَهُم، وبين عظَمَة ربوبيَّته؛ فأشرقَتْ على سرائر قلوبِهم شموسُ إقباله، وتحقَّقتْ بصائرُهم بما شاءَ من مقدَّسِ جلالِه؛ فعصِمهُم بتلك الهيبة أن يقَعَ في حضرته الاشتغالُ عنهُ منهُم، واشتغلوا بمُراقبته ﷻ عنهُم»[2].

(١) فتح الأبواب بين ذوي الألباب وبين ربِّ الأرباب: ١٢١.
(٢) المصدر نفسه: ١٠٩.

إضاءاتٌ على المُكاشفة والشُّهود

أ. إنَّ حقيقة الكشف، والشُّهود من سُنخ الإشراق، وهو أرقى من اليقين الفكريّ، والذِّهنـيّ، ويُطلق على الشُّـهود اليقين القلبيّ، وعين اليقـين، وحقُّ اليقين، ويُطلَق على الذِّهنـيّ علم اليقين، ولكلٍّ واحدٍ منهما آثـارٌ تتعلَّقُ بالإيمان، وهي بطبيعة الحال مُختلفةٌ؛ فمثـلًا هُنـاك فرقٌ بين رؤية النَّـار، وتصوُّرها، وكذا الآثار العينيَّة للنَّـار عن تصوُّر آثار النَّار[1].

ب. ماهيَّة المُكاشـفة، هي الحضور الداخليّ لعالم الشَّـهادة، وهي نحوٌ من الاتِّصال بالغيب؛ فيسـمعُ، ويرى، ويتلقَّـى قلبُهُ الأخبار الغيبيَّة، وشـهود الحقائق الملكوتيَّة؛ بل شـهودُ حقيقـة الوجود (الله)، وشـهود ما لايتناهى مـن عظمةِ الله، وعلمِـه، وقُدرته، وكمالِه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾[2]، ويقول السيِّد في الاتِّصال بالله تعالى، والإقبال عليه: «فَهُم بين متَّصلٍ الإقبال، مكاشف بذلك الجلال»[3].

(١) لليقـين إطلاقـان، الأوَّل: اليقين بالمعنى الأعـم، وهو: الاعتقاد الجازم، الثـاني: اليقين بالمعنى الأخص، وهو: الاعتقاد الجازم المطابق للواقع، وله مراتب:
١. **علم اليقين**: وهو الذي يحصل للإنسـان عند مشـاهدته الدلائل المختلفة، كأن يشاهد دخانًا، فيعلم علم اليقين أن هناك نارًا.
٢. **عين اليقين**: وهو يحصل حين يصل الإنسان إلى درجة المشاهدة، كأن يرى بعينه مثلًا النَّار.
٣. **حقُّ اليقين**: وهو كأن يدخل الإنسـان النَّار بنفسه، ويحسّ بحرقتها، ويتَّصف بصفاتها. وهذه أعلى مراتب اليقين.
لاحظ على سـبيل المثال: أوصـاف الأشراف (للمحقِّق نصـير الدين الطـوسيّ)، الباب الرابع، الفصل الخامس: ٥٥.

(٢) سورة القيامة، الآية: ٢٢.

(٣) وتمام عبارته: اعلم أنَّ لأهل الصيام مع اسـتمرار السـاعات واختلاف الحركات والسـكنات، درجـات في أنَّهـم ذاكرون أنَّهم بـين يدي الله ﷻ، وأنَّه مطَّلـع عليهم، و مـا يلزمهم، لذلك من إقبالهـم عليه، ومعرفة حقِّ إحسـانه إليهم، فحالهم في الدرجات على قدر اسـتمرار المراقبات،=

ج. الأداة: تُعدُّ قوَّة العقل مرتبة من مراتب وجود الإنسان الغيبيَّة، وأخفى منها قوَّة يُطلق عليها القلبُ، وكلٌّ منهما بحدودِه بوصفِه من أدوات كشف الغيب؛ فالمُكاشفة العرفانيَّة في مقابل البُرهان الفلسفيّ؛ فأداةُ العارف القلبُ، وأداةُ الفيلسوف العقلُ.

ولا يخفى عليك أنَّ أداة معرفة عالم الغيب تختلفُ عن أداة معرفة عالم الشَّهادة الحسِّيّ؛ فمثلًا العينُ محدودةٌ بحُدود، ومقدورة بقُدرةٍ، والسرُّ فيه أنَّها من سُنخ المادَّة والطَّبيعة، على حين أنَّ المُشاهدة الغيبيَّة غيرُ محدودةٍ، ولا متعيِّنة، ولا مقدورةٍ بقدَرٍ؛ لأنَّ حقيقتها من سُنخ الملكوت، والعِلم، والقُدرة، والحياة، وليس هناك فرقٌ في صِغَر الأجسام، وكِبَرِها، وسهْلها، وصعْبها؛ فالمُشاهدة الغيبيَّة تفوق المشاهدةَ الحسّيَّةَ كرؤية الجبلِ؛ فالغيبيَّة تفوقُه.

﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾[1].

نعم، من المُحال وضعُ البحر في قدحٍ محدودٍ، مع أن ليس المُراد في الآية الشريفة نفيَ القُدرة عن الله تعالى؛ بل إرادته تعالى لا تتعلَّق بالمُحال.

أمَّا عقل الإنسان، وقلبهُ، يفمكن لهما إخطار ذلك بوصفِهما غير محدودينِ، ولا متعيِّنينِ؛ ويمكنُ لهما الوصول للا محدود، واللا مُتعيَّن، وإدراك ومن هذا القبيل تعقل الكليَّات أيضًا.

=فهم بين متَّصل الإقبال، مكاشف بذلك الجلال، وبين متعثِّر بأذيال الإهمال، وناهض من تعثُّره بإمساك يد الرحمة له والإفضال، ولا يعلم تفصيل مقدار مراقباتهم وتكميل حالاتهم إلَّا المطَّلع على اختلاف إراداتهم، فارحم روحك أيُّها العبد الضعيف الذي قد أحاط به التهديد والتخويف، وعرض عليه التعظيم والتبجيل والتشريف. إقبال الأعمال:١/ ٨٤. (م)

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٤٣.

فيمكن بأداةٍ غير جسمانيَّة مُشاهدة الغيب الذي هو حقيقةٌ من سُنخِ الملكوت؛ فعندما سأل أحد الخوارج الإمام الباقر عليه السلام:

«يَا أَبَا جَعْفَرٍ أَيَّ شَيْءٍ تَعْبُدُ، قَالَ: اللهَ تَعَالى. قَالَ: رَأَيْتَهُ؟ قَالَ: بَلْ لَمْ تَرَهُ الْعُيُونُ بِمُشَاهَدَةِ الْأَبْصَارِ، وَلَكِنْ رَأَتْهُ الْقُلُوبُ بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ، لَا يُعْرَفُ بِالْقِيَاسِ، وَلَا يُدْرَكُ بِالْحَوَاسِّ..»[1].

د. المنهج: منهج الفيلسوف المنطقُ، والاستدلال، بينما منهج العارف المُجاهدة، والتَّصفية، وتهذيب النَّفس، والعارف لا علاقةَ لهُ بالعقل، ولا بمنهج الفلاسفة؛ فهو يعتقد أنَّ الشُّهود، والمُكاشفة الطَّريق الوحيد الذي يطمئنُّ إليه للوصول إلى الحقيقةِ، وهو طورٌ فوق طور العقل، «يعدُّ باطن الإنسان بابًا لكلِّ الوجود والعالم؛ لأنَّ من هذا الباب يفتح إلى الحقِّ؛ فإذا رأى الإنسانُ الحقَّ، رأى عِبرَه كلَّ شيءٍ»[2]، ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾[3].

يعتقد السيِّد ابنُ طاووس أنَّه للوصول إلى الحقائق، والمعارف، فضلًا عن طريق الفطرة الأوَّليَّة، وطريقَي العقل والشَّرع هناك طريقٌ آخر للوصول إلى المعرفة[4].

ومعنى هذا إمكان معرفة الله تعالى بحسب معلوماتِه، ومقدوراتِه على النَّاس «أنَّ طرق المعرفة بالله جلَّ جلاله بحسب معلوماته، ومقدوراته على الأنام، ولا ينحصر عددُها بالأفهام»[5].

(١) الكافي: ١/ ٩٧.
(٢) مجموعة آثار شهيد مطهَّري: ٢٣/ ٤١٤.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٧٥.
(٤) لا يخفى من أنَّ المقصود من طريق المكاشفة، والشهود هنا ليس مستقلًّا عن العقل والشَّرع، بل إنَّه متَّحد معهما، ويعدُّ مرتبة من مراتب المعرفة.
(٥) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٥٥.

ويعـدُّ السـيِّد أنَّ المعرفـة القلبيَّـة مِنَّـةٌ منـه تعـالى: «ولـه جل جلاله المنَّـة في معرفـة القلب»[1].

وللسيِّد اطِّلاعٌ على مسألة الكشف، والشُّهود، وكذا على أهل الكشف، والعرفان، كما يتَّضح عبرَ مُطالعة آثارِهِ ذاتِ الصِّلة.

نحاولُ في هذا القسم من البحث أن نسلِّطَ الضَّوءَ على معرفة السيِّد بأهل الكشف، ونطـلَّ إطلالةً على الكشـفِ، والشُّـهود في فكرهِ قدس سره، ونشـير إلى عيِّناتٍ من الكشـفِ، والشُّهود لهُ.

١. معرفة السيِّد بأهل الكشف:

نشيرُ هُنا إلى نظَر السيِّد حول العُرفاء، وما ذكرهُ بخُصوصهم؛ إذ يقول:

«ووجدَ العارفون على مائدة ضيافة رسالته تصديقه بإجابة الدَّعوات»[2].

وعليه ينبغي أن يُقال إنَّ السـيِّد، فضلًا عن معرفته بالعُرفاء، مطَّلعٌ على مقولاتِهم، وهـذا النُّصُّ من السـيِّد يمثِّـل اعترافًا منـه أنَّ هناك علاقـةً، وعلقةً بين بيـان العرفاء، وسيرتهم، وسنَّة النبيِّ الأعظم صلى الله عليه وآله، وسيرته.

وقد أقرَّ السيِّد بذلك في حديثِه عن يقينِه؛ فيقينُه بالتَّوحيد عن طريق أهل البيت عليهم السلام «أشـهد أن لا إله إلَّا الله شهادةً صدرت عمَّا شرَّفني به من اليقين، وعرَّفني من الأسرار عن السَّلَفِ الطَّاهرين»[3].

يقول الشَّهيد المطهَّريّ في هذا السِّياق:

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٣٩.
(٢) المصدر نفسه: ٨٠.
(٣) محاسبة النفس، للسيِّد ابن طاووس: ١٠.

«عرفاءُ الإسلام: (الخاتم من ختم المراتبَ بأسرها)، أي إنَّ النبيَّ الخاتم هو الذي اجتاز جميعَ المراحل، ولم يُبقِ وحيُه طريقًا إلَّا سلكهُ، ولا بُقعةً إلَّا كشفَها، ولو افترضنا أنَّ جميعَ المسائل المختصَّة بعلمٍ من العُلوم قدِ اكتُشفت؛ فلن يبقى بعد ذلك مجالٌ لتحقيقٍ جديدٍ، واكتشافٍ جديدٍ، وهكذا هي المسائل المتعلِّقة بالوحي، فبكشف آخر الأواصر الإلهيَّة، لا يبقى مجالٌ لكشفٍ جديدٍ، ونبيٍّ جديد؛ فمُكاشفة الرسالة المُحمَّديَّة أكمل مكاشفة يمكن أن يقومَ بها إنسان، وهي آخر مراحلها، وبدهيّ أنَّ أيَّة مُكاشفة أخرى بعد تلك المُكاشفة، لن تكونَ جديدةً، وهي كالسَّير في أرض سِيرَ عليها من قبل، ولن تحتوي على كلامٍ جديد، وموضوعٍ جديدٍ، آخر الكلام هو الذي ورد في تلك المُكاشفة ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[1]»[2].

وهناك موارد كثيرة في آثار السيِّد تؤيِّد معرفته بأهل المُكاشفة، ولا شكَّ في أنَّه كان لهُ اطِّلاعٌ على ساحة العُرفاء، وعلى كلِّ حالٍ، وبنحوٍ كلِّيٍّ اطَّلع على سيرة العُرفاء، ولكن لم يُشِرْ إلى أسمائهم، أو اصطلاحاتهم، أو أدبيّاتهم، وممّا يدلّ على ذلك من الاطِّلاع، وتأثُّره بهم، مثل تعبيره: «مقام»[3]، «مقامات العُرفاء»[4] و«مُكاشفة العَيان»[5].

ربَّما لا يمكن لنا تحديدُ زمان لقاء السيِّد بالعُرفاء، وأهل المُكاشفة المعاصرين لهُ، ولكن من المُحتمل أنَّه التقى بهم، أو حصلتْ مُراسلةٌ بينهم، كما حصل بين صدر الدين

(١) سورة الأنعام، الآية: ١١٥.
(٢) مجموعة أثار استاد شهيد مطهَّري: ٣/ ١٦٧.
(٣) لاحظ: فلاح السائل: ٣٢، ٣٣، ٤٦، ٥٢، ٦٥، ١٠٤، ١٠٦، ١٧٥، ٢٠٦، ٢١١، مهج الدعوات ومنهج العبادات: ٣٠٢.
(٤) راجع: فلاح السائل ونجاح المسائل: ١٠٤، ٢٠١، كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٧٣، مهج الدعوات ومنهج العبادات: ٢٧٣.
(٥) فلاح السائل ونجاح المسائل: ١٠٩.

محمَّد القونويّ، والمُحقِّق نصير الدين الطوسيّ الذي كان يكنُّ للقونويّ الاحترامَ؛ فلعلَّ السيِّد تواصلَ مع الطوسيّ، ونقل لهُ عن القونويّ، ولكن كلُّ هذا يبقى في عالم الاحتمالات، ولا نملكُ وثيقةً تؤكِّدهُ.

ولكنَّه سجَّلَ لنا في كتبِه أنَّه يعرف شخصًا، ووصفَه: «كان يجعل لهُ من الأنوار في الأسرار ما يكون كاشفًا بجلالِه، ومُتشرِّفًا بإقبالِه، ومشغولًا عن كلِّ ما عداهُ من دنياه، وأُخراه..»[1].

وعدَّ هذهِ من المواهب، وبعضٌ منها جرَّبها، والأخرى سمعَها: «فكلُّ هذه المواهب شيء منها جرَّبناه، وشيء منها عرفناه، و سمعناه»[2].

وكتب عن خلوةِ العُرفاء، وأحاديث أهل المُحاسبة، والمُراقبة، وحكايات أهل القُلوب[3].

ويصف عرفاءَ يعرفُهم «أعرف قومًا، أنجادًا، أمجادًا، أفرادًا، كأنَّ الموت على من مضى منهم سعادة، ورحمة، ويكون الموت على من بقِي منهُم زيادة، ونعمة؛ فما أشوقَهم إلى انقضاء أيَّام دارِ الزَّوال، وما أعرفَهم بوجوه الإقبالِ، وما أسعفَهم بصفات الكمال، وما أخوفَهم من المقام في الدُّنيا حذرًا من نُقصان الأعمال، والأحوال، كوشفوا بجلالةِ مولاهم، وعرفوا أنَّه جلَّ جلالُه يراهُم؛ فأرواحُهم، وعقولهم، وقلوبُهم، ونفوسُهم، مشغولةٌ به لذاته، قد بهرَهم مُقدَّس ذاتِه، وشرف صفاته، ويخدمون خدمةَ جهدِ المُستطيع،

(١) وتمام العبارة: «فقد رأينا من شرَّفه جلَّ جلالُه، جعل الذهب والفضة عنده أهون من التراب، بل جعله عنده عدوًّا يفرُّ منه، وإذا حصل له أخرجه عاجلًا، أو تباعد عنه، أو كان يجعل له من الأنوار في الأسرار ما يكون كاشفًا بجلاله، ومتشرِّفا بإقباله، ومشغولًا عن كلِّ ما عداه من دنياه وأُخراه». كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٩٢. (م)

(٢) المصدر نفسه: ١٩٢.

(٣) لاحظ: فلاح السائل: ٦، ٩٠، ١٠٢، ٢١٠.

ويندبون، ويبكون ندبَ من لم يزل في التَّفريط، والتَّضييع، عرَّفهم ما أراد من كُنه جلالِه، وعظمة إقباله؛ فشغلهم بجلالته، وهيبتِه، وحُرمته، ومراحمه، ومكارمه، ونعمتِه عن حظوظ أنفسِهم منه، وما بقِي لهم قلبٌ، ولا جَنانٌ، ولا لسانٌ، ولا إمكانٌ تُصرفُ في ما يبعدُهم عنه، تقيَّدتِ الجوارحُ بقُيود الحضور في خدمة المعبود، وتولَّهت العقولُ، وتتيَّهت بهولِ ذلك الوجود، والجود؛ فعظمتُه ﷻ لهم ذاهلة، ورحمتُه ﷻ الكاملة لهم شاغلة؛ إذ كلٌّ منهما يملك قلوب العارفين، ويشغل عقول المكاشفين، ولكن أولئك لا يُعرَفون إن وجدوا، وإن غابوا لم يفتَقَدوا، وما أعني أنَّ أسماءَهم، ووجوهَهم غير معروفة؛ بل الوجوه، والأسماء موصوفة، وأسرارهم، وأسرار مولاهم عندهم غير مكشوفةٍ»[1].

وعدَّ وقتَ ما بين العشاءَينِ مختصًّا بمُناجات علَّام الغيوب، وكتب عن العارفين من أنَّهم لا يتكلَّمون مع غير الله بهذا الوقت:

«كان جماعة من العارفين لا يتكلَّمون مع غير الله ﷻ بين المغرب، وعشاء الآخرة؛ فإنَّه وقتٌ مختصٌّ بمُناجاة علَّام الغيوب، ونجاح المطلوب..»[2].

وأنَّه كان يعرف شخصًا يعرف أوائل الشُّهور:

«أعرف على اليقين مَن يعرف أوائل الشُّهور»[3].

(١) فلاح السائل: ٦٢.

(٢) المصدر نفسه: ٢٣٢.

(٣) للفائدة ننقل تمام كلامه: «أعرف على اليقين من يعرف أوائل الشهور، وإن لم يكن ناظرا إلى الهلال، ولا حضر عنده أحد من المشاهدين، ولا يعمل على شيءٍ ممَّا تقدَّم من الروايات، ولا بقول منجِّم، ولا باستخارة، ولا بقول أهل العدد، ولا في المنام، بل هو من فضل ربِّ العالمين الذي وهبه نور الألباب من غير سؤال، وألهمه العلم بالبديهيَّات من غير طلبٍ لتلك الحال، ولكن هو مكلَّف بذلك وحده على اليقين، حيث علم به على التعيين». إقبال الأعمال: ١/ ١٦. (م).

فضلًا عن معرفة السيِّد بأهل العرفان، والمُكاشفة كما في النُّصوص السَّابقة؛ فإنَّه له علاقة قلبيَّة معهم، وتأثُّره بنظرِ العُرفاء، وسـنتحدَّث أكثر عن هذا الموضوع في المبحث الثاني إن شاء الله تعالى.

٢. توصيفُ الكشف، والشُّهود:

ممَّا تقدَّم يرى العارفُ أنَّ المُكاشفةَ، والشُّهود، طريقٌ آمنٌ للمعرفةِ، وهو طورٌ فوق العقلِ؛ إذ يعتقدُ السيِّدُ: «اعلم أنَّ تعريف الله ﷻ لعباده بشيءٍ من مُراده؛ فإنَّه لا ينحصر بمجـرَّد العقل جميعُ أسـبابه، ولا يُدرك بعين الشَّـرعِ تفصيلُ أبوابـه؛ لأنَّ الله ﷻ قادرٌ لذاته؛ فهو قادر على أن يعرفَ عبادَه مهما شاء، ومتى شاء بحسب إرادته..»[1].

وأنَّ السيِّد كان يعتقد بالكشف، والشُّهود، ويعرف أهله؛ ولذا عِبر ما تقدَّم، يتَّضح أنَّه يعتقد بذلك من دون شكٍّ[2].

وعدَّ الكشف من الفتوح الإلهيَّة، ودافع عنها.

٢-١. الفتوح إلهيّ

يُلاحظ منَ الاصطلاحات المُستعملة في آثار السـيِّد: الفتوح إلهيّ، والفتوح إلهيّ، بنظـر السـيِّد، هو ما يحصـل عن طريق القلـب، في قِبال مـا يحصل عن طريـق العقل، والاسـتدلال، وأنَّ السـيِّد يُعطي قيمةً أكثر للفتوح الإلهيّ؛ فهو يعتقد أنَّ ما يحصل عن طريق القلب، هو فتح الإلهيّ بقُدرته الباهرة، ويقول في حديثه عن قدرة الله تعالى عندما يفتح على العبد، وبين العبد القاصر، لا يفتح لنفسِـه: «إنَّ القادر بذاته يفتح إذا شاء على قـدر قدرته القاهرة الباهـرة، والعبد النَّاظر القادر بغيره لا يفتح بنفسـه إلَّا بقدر قُدرته

(١) إقبال الأعمال: ١/ ١٦.
(٢) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٥٨.

القاصرة، وذلك الفتوح الإلهيّ أقوى اتِّصالًا، وأبقى كمالًا، وأتمّ نورًا، وأعمّ سرورًا، وأوضح في الاطِّلاع على الأسرار، وأرجح في عمارة الأفكار»[1].

وأيضًا: «وتجلَّى لهم في آفاق ما اختصَّ بهِ من مقدوراتِه»[2].

يمكن أن يحصل للعبد فتحٌ عبر أسبابٍ نظريَّة، ولكن تبقى محدودة، كما يطلق على كِليهما معرفة، ولكن أين هذه من تلك؟ هيهات!.

«الله ﷻ الذي عطف على أوليائه، وخاصَّته، ولطف لهم بما أراهم من أسرار ملكوتِه، ومملكته، وكشف الحجب بينهم، وبين عظمة ربوبيَّته؛ فأشرقتْ على سرائر قلوبهم شموس إقباله، وتحقَّقتْ بصائرهم بما شاء من مُقدَّس جلالِه؛ فعصمهم بتلك الهيبة أن يقع في حضرته الاشتغال عنه منهم، واشتغلوا بمُراقبته ﷻ عنهم»[3].

ويعتقد السيِّد بأنَّ: «ذلك الفتوح الإلهيّ أقوى اتِّصالًا، وأبقى كمالًا، وأتمّ نورًا، وأعمّ سرورًا، وأوضح في الاطِّلاع على الأسرار، وأرجح في عمارة الأفكار»[4].

وأنَّ معرفة الله جلَّ وعلا، وأسراره تُعرَّف بأنواره: «واعلم يا ولدي أراك الله ﷻ بعين أنواره ما تحتاج إلى معرفته من أسراره»[5].

ويضرب أمثلةً في سياق تدارك رحمة الله تعالى للإنسان:

«إنَّ أهل الكهف كانوا مماليكَ لا يفقهون، وسحرة فرعون كانوا سُكارى بالكفر

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة:٦٩.
(٢) مهج الدعوات ومنهج العبادات: ١/ ٢.
(٣) فتح الأبواب بين ذوي الألباب وبين ربِّ الأرباب: ١٠٩.
(٤) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٦٩.
(٥) المصدر نفسه: ١٩١.

مـا يعتقد ناظرهم أنَّهـم يفيقون؛ فتداركهـم الله ﷻ برحمةٍ من رحماته الجميلة؛ فأمسـوا عارفين به مخلصين، من أهل المقامات الجليلة»[١].

٢-٢. الدِّفاع عن المكاشفة

عدَّ السـيِّد تلقِّي المعرفة الحضوريَّة، والشُّهوديَّة في القلب، وليست من سُنخ العلم المعتمـد على الفكر، والنَّظَر: «جعل قلبـك مرآة تنظر بها ما يريده هو ﷻ من العلوم من وراء سَترٍ رقيق»[٢].

يقول الشَّهيد المطهَّريّ في هذا الأمر:

«وبـما أنَّ القـرآن يتحدَّث عن الوحي؛ فإنَّه لا يذكر العقـل؛ بل يقتصر على التوجُّه إلى قلـب الرَّسـول، وهذا يعنـي أنَّ القـرآن لم يحصلْ للرَّسـول عن طريق قـوَّة العقل، ولا بالاستدلال العقليّ؛ وإنَّما هو قلب الرَّسول الذي بلغ حالةً لا نستطيع نحن تصوُّرها؛ فاصبح فيها قادرًا على إدراك تلك الحقائق السـامية، وشـهودها، إنَّ كيفيَّة هذا الارتباط مبيَّنة إلى حدٍّ ما في آيات من سورتَي النَّجم، والتَّكوير»[٣].

وعدَّ السـيِّد غير هذا التلقِّي ناقصًا: «والعبد النَّاظر القادر بغيره، لا يفتح بنفسه إلَّا بقدر قدرته القاصرة»[٤].

وليُعلَم أنَّ هدف السيِّد لم يكن معرفة الحقيقة؛ بلِ الوصول إلى قصد كمال الإنسان، ومقصـوده، وهذا يمثِّل دليلًا على أنَّ السـيِّد يعتقد بالعرفان، وطريق الشُّـهود، كما عدَّ الفكر، والنَّظر؛ بل والقلب أيضًا في مرحلة من المراحل حجابًا «متى وصل إلى غاية تدلُّ

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٩١.
(٢) المصدر نفسه: ١٩٣.
(٣) مجموعه آثار الشهيد المطهَّري: ٢٦/ ٧٠. (فارسيّ).
(٤) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٦٩.

على صانع لوجوده؛ فإيَّاه أن يصرف هذا النَّاظر خاطرَه، أو يخلِّي سرائرَهُ من الاعتماد على مراحم، ومكارم صانعه، وجوده»[1].

«لقد وجدتِ الفلاسفة، وأكثر من ضلَّ بغير عنادٍ أنَّ ضلالهم كان من طريق التوكُّل، والاعتماد على العقول، والقلوب، والاجتهاد مع الغفلة عن سلطان المعاد»[2].

ويرى السيِّدُ حقيقة واحدة لا حقائق، وهي أفعال، ذات الله تعالى، وأسمائه «وتجلَّى لهم في آفاق ما اختصَّ به من مقدوراته، وأراهم في مرآة آياته في خلق ملكوته، وسماواته، ما كان كافيًا، وشافيًا في الدَّلالة على مُقدَّس ذاته، وعظيم صفاته»[3].

ويعتقد أنَّ المُكاشفة تحتاج إلى فضل من الله تعالى، وأنَّه دافع عن واقعيَّة المُكاشفة، مستندًا إلى القرآن الكريم في ذلك، فمَن أنكر المُكاشفة، وكذَّبها؛ فهو كمن لا يهتدي، فيقول هذا كذِبٌ «إيَّاك أن تكذِّب بما لم تحطْ به علمًا من فضل الله ﷻ العظيم، فتكون كما قال الله ﷻ: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾[4]»[5].

ولغرض تفهيم، وإفهام، وتقريب إلى من أنكر واقعيَّة المُكاشفة، يخاطبهم بقوله: «فكلُّ المعلومات لم تكن محيطًا بها، ثمَّ علمتَ بعد الاستبعاد لها، ولو قال لك قائلٌ: إنَّه رأى ترابًا يمشي على الأرض باختياره، ويحيط بعلومٍ كثيرة في أسراره، ويغلب مَن هو أقوى منه مثل السَّبع، والفيل، والأمور التي يتمكَّن منها ابن آدم في اقتدارِه، كنت قد استبعدتَ هذا القول من قائله، و تطلَّعت إلى تحقيقه، ودلائله؛ فإذا قال لك هذا التُّراب

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٦٩.
(٢) جمال الأسبوع بكمال العمل المشروع: ٤.
(٣) مهج الدعوات ومنهج العبادات ١: ٢.
(٤) سورة الأحقاف، الآية: ١١.
(٥) إقبال الأعمال: ١/ ٦٦.

الذي أشرت إليه هو أنت على اليقين؛ فإنَّك تعلم أنَّك من ترابٍ، وتعود إلى تراب، وإنَّما صرت كما أنت بقدرة ربِّ العالمين؛ فذلك الذي أقدرك مع استبعاد قدرتك هو الذي يقدر غيرك على ما لم تحط به علمًا بفطنتك»[1].

ويعتقد السيِّد أنَّ الله تعالى قد أتمَّ حجَّته على النَّاس بحُججٍ عقليَّة، ونقليَّة، بواسطة الأولياء على أهل المغرب، والمشرق، وأودع ما يحتاجون إليه من العلوم: «وأشهد أنَّ الله جلَّ جلاله قطع بحُججه العقليَّة، والنَّقليَّة، حجج الخلائق، ولطف بالعباد برؤساء، وشهداء، يحتجُّ بهم على من يحتجّ عليه من أهل المغارب، والمشارق، وأودعهم ما يحتاج المكلَّفون منهم إليه، وكشف برحمته، وجوده، عن آيات باهراتٍ، وبيِّنات نيِّرات تهدي إلى من اعتمد في الرِّئاسة عليه، لا يشتبه معدنها، ومكانها، ولا يخفى نورها، وبرهانها، على كلِّ من صدَّقه جلَّ جلاله في قوله الذي وعاه، ورعاه العارفون: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[2]»[3].

ويسوق نماذج من القرآن الكريم، والسنَّة الشَّريفة للدِّفاع عن الكشف، والشُّهود، وهي:

أ. نماذج من المكاشفات من الكتاب العزيز:

عدَّ السيِّد من النِّساء امرأة فرعون، والسيِّدة مريم (سلام الله عليها)، وأمُّ نبيّ الله موسى (صلَّى الله على نبيِّنا وآله وعليه وعليها السلام)، حصل لهنَّ كشفٌ: «أنَّ امرأة فرعون ومريم بنت عمران، وأمّ موسى عليه السلام، نساء ذوات ضعف عن الكشف، تولاهنَّ الله جلَّ جلاله بيد اللُّطف، والعطف، حتَّى فارقت زوجة فرعون مُلك زوجها، ودولته، وحقَّرته، وهوَّنت عقوبته.

(١) إقبال الأعمال: ١/ ٦٦
(٢) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.
(٣) فلاح السائل: ٣.

وبلغتْ مريم إلى كرامات، وسعادات، حتَّى أنَّ النبيَّ المُعظَّم في وقتها زكريَّا عليه السلام يدخل عليها في المِحراب؛ فيجد عندها طعامًا يأتيها من سلطان يوم الحِساب، بغير حِساب، ويفهم من صورة الحال أنَّ زكريَّا ما كان يأتيه مثل ذلك الطَّعام؛ لأنَّه عليه السلام قال: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ على سبيل التعجُّب، والاستفهام، وهو أقرب منها إلى صفات الكمال.

وهذه أمُّ موسى يوحي الله تعالى إليها بغير واسطةٍ من الرِّجال، حتَّى يهوِّن عليها رمي ولدها، وواحدها، ومهجة فؤادها، في البحر، والأهوال»[1].

وذكر الشيخ الصدوق (ت٣٨٦هـ) قريب من هذا المطلب عن أمير المؤمنين عليه السلام: «كُنْ لِمَا لَا تَرْجُو أَرْجَى مِنْكَ لِمَا تَرْجُو؛ فَإِنَّ مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ عليه السلام خَرَجَ يَقْتَبِسُ لِأَهْلِهِ نَارًا؛ فَكَلَّمَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ، فَرَجَعَ نَبِيًّا، وَخَرَجَتْ مَلِكَةُ سَبَإٍ فَأَسْلَمَتْ مَعَ سُلَيْمَانَ، وَخَرَجَ سَحَرَةُ فِرْعَوْنَ يَطْلُبُونَ الْعِزَّةَ لِفِرْعَوْنَ؛ فَرَجَعُوا مُؤْمِنِينَ»[2].

بعدما ذكر السيِّد نماذج من القرآن، يوجِّه الخِطاب إلى ابنه محمَّد: «فلا تقصر همَّتك يا ولدي محمَّد عن غاية بلغ إليها حال النِّساء الضَّعيفات»[3].

وصرَّح بهذه المسألة في كتابه سعد السعود: «واعلم أنَّ من أسرار الله جلَّ جلاله في هذه الآية أنَّه أرانا جلَّ جلاله أنَّه قوَّى قلب امرأة ضعيفة، وهي أمٌّ شفيقة، وليس لها إلَّا هذا الولد الواحد، على أن تُلقي ما هو أعزُّ عندها من مهجتها في البحر، ووثَّقها من وعده الشرِّيف حتَّى سمعت، وبذلت قطعة كبدها، وسويداء قلبها، وروح روحها في هول البحر العنيف، وأرانا جلَّ جلاله أنَّ يعقوب يكون لهُ اثنا عشر ابنًا ذكرًا، فقدَ واحدًا منهم،

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٧٣.
(٢) الأمالي (للصدوق): ١٧٨
(٣) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٧٤.

وهو أصغرهم، وقد كان عنده علمٌ من سلامته، ونبوَّته، يقول يعقوب: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ فجرى ليعقوبَ من الحُزن، والجزع، وذهاب البصر، حتَّى صار مثَلًا لمن بقِي، وغبر، إنَّ في ذلك والله لعبرة لذوي النَّظر، فينبغي أن لا ييأس الضَّعيف من فضل الله البرِّ اللطيف، إذا رأى القويّ، وعاجزًا عن حالٍ من الأحوال، إنَّ الله تعالى يعطي الضَّعيف من القوَّة ما لا يعطي أهل المقاماتِ العاليـاتِ في الأعمال، وهذه المرأة المعظَّمة أمُّ موسى حجَّة على من كلِّف بمثل تكليفها، أو دونه، أظهر العجز عنه، وحجَّة على مَن وعده الله ﷻ بوعودٍ فلم يثِقْ بها، ولم يفعل كما فعلت أمّ موسى في الثِّقة بالوعد أنَّه يعيد ولدَها إليها، وفيه توبيخٌ، وتعنيفٌ، أن يكون الرِّجال القوَّامون على النِّساء دون امرأة ذات برقع، وخِمار، في طاعة سلطان الأرض، والسَّماء»[1].

ويختم كلامه بالآية الكريمة من أنَّ رحمة الله تعالى يقسِمُها الله لا النَّاس، وينبغي طلبها من الله تعالى: «واطلبْ ذلك ممَّن قال ﷻ: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾[2]»[3].

ويذكر السيِّد روايةً عن باقر العلوم عليه السلام إنَّ إلقاء هذه الأسرار وليّ الأمر في السّنة: «عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام مَا هَذَا لَفْظُهُ: **إِنَّمَا يَأْتِي بِالْأَمْرِ مِنَ اللهِ فِي لَيَالِ الْقَدْرِ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله، وَإِلَى الْأَوْصِيَاءِ عليهم السلام افْعَلْ كَذَا وَكَذَا**».

أقول: واعلمْ أنَّ إلقاء هذه الأسرار في السّنة إلى وليِّ الأمر ما هو من الوحي؛ لأنَّ الوحي انقطع بوفاة النبيّ صلى الله عليه وآله، وإنَّما هو بوجهٍ من وجوه التَّعريف، يعرفه من يُلقى

(١) سعد السعود للنفوس: ٧٥.
(٢) سورة الزخرف، الآية: ٣٢.
(٣) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٧٤.

إليه ﷺ، وقد قال ﷻ: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ﴾[2]، وقال ﷻ: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾[3]، ولكلٍّ منها تأويلٌ غير الوحي النبويّ»[4].

ب. نماذج من المُكاشفة في السنَّة الشَّريفة:

يقرِّر السيِّد في سياق دفاعه عن المُكاشفة بذكر عيّنات منها: «قَدْ رُوِيَ أَنَّ مَوْلَانَا جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدٍ الصَّادِقَ عليه السلام كَانَ يَتْلُو الْقُرْآنَ فِي صَلَاتِهِ، فَغُشِيَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا أَفَاقَ سُئِلَ مَا الَّذِي أَوْجَبَ مَا انْتَهَتْ حَالُكَ إِلَيْهِ؟ فَقَالَ مَا مَعْنَاهُ: **مَازِلْتُ أُكَرِّرُ آيَاتِ الْقُرْآنِ، حَتَّى بَلَغْتُ إِلَى حَالٍ كَأَنَّنِي سَمِعْتُ مُشَافَهَةً مِمَّنْ أَنْزَلَهَا عَلَى الْمُكَاشَفَةِ وَالْعِيَانِ؛ فلم تَقُم القوَّة البشريَّة بمُكاشفةِ الجلالةِ الإلهيَّة**»[5].

إضاءات:

١. يعلِّق السيِّد بعد نقله مُكاشفة الإمام صادق آل محمَّد عليه السلام: «**فلم تقُم القوَّة البشريَّة بمُكاشفة الجلالة الإلهيَّة**»، وهذا المهمُّ، في المقام ثمَّة حقيقة، ولكن فهمها غير متيسِّر للجميع، «**فلم تقُم القوَّة البشريَّة بمُكاشفة الجلالة الإلهيَّة**».

٢. يحذِّر الذي لا يدرك هذه الحقيقة بأن لا ينكرَها، أو ينزغَ الشيطان في داخلك شكًّا فيما تقدَّم: «وإيَّاك يا مَن لا تعرف حقيقة ذلك أن تستبعدَه،

(١) سورة المائدة، الآية: ١١١.
(٢) سورة القصص، الآية: ٧.
(٣) سورة النحل، الآية: ٦٨.
(٤) إقبال الأعمال: ١/ ٦٥.
(٥) فلاح السائل: ١٠٧.

أو يجعل الشَّيطان في تجويز الذي رويناهُ عندك شكًّا؛ بل كُنْ به مصدّقًا، أما سمعتَ الله جلَّ جلالُه يقول: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾[1]»[2].

وممَّا ينبغي الإشارة إليه في ما قرَّرهُ السيِّد؛ فإنَّه يعتقد أنَّ تجلِّي الله تعالى، هو المُكاشفة، كما فهمَه من الآية الكريمة: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ ..﴾.

٣. يقول السيِّد الكامل العارف المرحوم حيدر الآمليّ، بعد نقلِه الحديثَ الصادقيّ المُتقدّم: «.. لأنَّ هذا إخبار عن شهوده الحقَّ مع الكلِّ وشهود الكلِّ معه، بحيثُ يسمع كلام الكلِّ من غير مانع، وحاجب، سيما مع نفسه؛ فإنَّه كان يسمع بنفسه من قائله، كما سبق ذِكره من قول الإمام: «**كنت أكرِّر آية حتَّى سمعتُ مَن قائلها**»[3].

٤. أشار المرحوم العارفُ بالله الميرزا جواد الملكِّيّ التَّبريزيّ إلى نظَرَينِ مُختلفينِ للسيِّد ابن طاووس في خصوص لقاء الله تعالى، وما تقدَّم من المُكاشفة؛ ففي نظرِ السيِّد هي لقاء الله:

«في (الإقبال): لعلَّ المراد بزيارة الله في عرشه أن يكون لقوم من أهل الجنَّة مكان من العرش، مَن وصلَ إليه يسمَّى زائر الله، وجعل الله الكعبة الشَّريفة بيته الحرام، من حجَّها؛ فقد حجَّ الله». انتهى.

وأنا أقول: لم يعلمْ مرادهرحمه الله، وأنَّه تأويل أيِّ جزء من الرواية، أيريد تأويل كون الزِّيارة في العرش، أو أصل الزِّيارة؟ وإن كان ظاهرُه الثاني، إلَّا أنَّه ليس هوقدس سره

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٤٣.
(٢) فلاح السائل: ١٠٧.
(٣) تفسير المحيط الأعظم والبحر الخضم: ٤/ ١٥٩.

من المُستوحشين من بعض مراتب المعرفة، واللقاء؛ فراجعْ ما ذكره في (فلاح السائل) في ذيل قول الصادق عليه السلام في سبب غشوته: «**كرَّرتُها حتَّى سمعتُها من قائلها، ولم يثبتْ جسمي**».

فإنَّ في كلامه قدس سره تصريحًا على تصوير الزِّيارة، والمُلاقاة، بوجهٍ من الوُجوه المعنويَّة التي لا يخالف تنزيهه تعالى عن الشَّوائب الجسمانيَّة.

وأنا أقول: الأَوْلى أن يُقالَ: المُراد: الزِّيارة بعينه، [و] هو الذي فصَّل في المُناجاة الشعبانيّة بأن تخرق أبصار القلوب حجب النُّور؛ فتصل إلى معدن العظمة، وتصير الرُّوح معلِّقةً بعزِّ قُدسِه الأقدس، ولا خُلفَ في ذلك أبدًا يحتاج إلى التأويل، ولعلَّ مُرادَهُ قدس سره تأويلُ تقييد الزِّيارة بكونها في العرش»[1].

٢-٣. الإمداد الإلهيّ

وممَّا ينبغي الإشارة إليه في هذا السِّياق أنَّ السيِّد يعتقدُ أنَّ ما يحصل بالمُكاشفة لا بدَّ من أنَّ لهُ يدًا خفيَّة تمدُّه بالعِناية، وحتَّى الأنبياء الرُّسل، والأوصياء (سلام الله عليهم) لهم هذه العناية: «وأنَّه لا بدَّ من رئيسٍ يتولَّى الله جل جلاله بلُطفه، وعطفه تهذيب اختياره، وتأديب أسراره، وتكميل صفاته، ويكون هو جل جلاله من وراء حركاتِ ذلك المعصوم، وسكناته، يمدُّها بالعنايات الباطنة، والظاهرة، ويرعاها بالهدايا المتناصرة، كما كان من وراء تدبير الأنبياء، والمُرسلين، ومن وراء تدبير من جعله رسولًا من الملائكة، والمُقرَّبين، وهذا واضحٌ لا يخفى على ذوي الألباب، ويكون ذلك المعصوم هو الحجَّةَ لسُلطان يوم الحساب، وقوله وفعله عليه السلام، هو القدوة التي لا تحتمل اختلاف التَّأويلات..»[2].

(١) المراقبات: ١٣٣.

(٢) فلاح السائل: ٥.

٢-٤. الإذن في الكشف والشُّهود

من جملة المسائل المبحوثة في العرفان النظريّ، والعمليّ، مسألةُ التزام السَّالك بالإذن من الله تعالى، أو من شيخِه، ومُرشده بعُنوان الوساطة، والإذن مثلًا في: الإظهار، والتَّصرُّف، والحركات، والسَّكَنات، و..

وذكر السيِّد هذا النَّحو من الإذن، وأنقلُ هنا نماذجَ من كلامه في هذا المجال: «فإنَّني وجدتُ العبد المؤدَّب، والمملوك المهذَّب، يجتهد أن لا يقع منه شيءٌ إلَّا بإذن مولاه، ومالك نِعمته؛ ليسلم بذلك من مُعاقبته، أو مُعاتبته؛ وليكون ضمان درك أعمال العبد على مولاه الذي تابعه في إشارته، وكان معه في إرادته»[١].

تعدُّ مسألة الإذن باعتقاد السيِّد أنَّ العارف متَّصل بالمالكيَّة على الإطلاق، وبنظره إرادة العارف إرادة الله تعالى: «.. حتَّى أوجب عليه من العبوديَّة بما بلغهُ من المقامات الدُّنيويَّة، والدِّينيَّة، أن تكون حركاتُه، وسكناته، وأسفارهُ، واختياره كلُّها بحسب الإرادة الإلهيَّة»[٢].

ومعه ففلسفة العُبوديَّة في برامج العبادة يقع الاتِّصال، والحركات، والسَّكنات، والاختيار، وإرادة العبد بالإرادة الإلهيَّة.

وهكذا يعتقدُ السيِّد أنَّ الدُّعاء بحاجة إلى إذن الأئمَّة الأطهار عليهم السلام؛ فطيُّ الطَّريق، والسَّيرُ في العُبوديَّة لا يحصل من دونهم، «نحن نقول بحسب ما يحتاج إليه للإذن منهم عليهم السلام للإنسان في الدُّعاء بمهما أفاض الله تعالى عليه فنقول، وبعضه من المنقول»[٣].

(١) فتح الأبواب بين ذوي الألباب وبين ربِّ الأرباب: ١١٢.
(٢) الأمان من أخطار الأسفار والأزمان: ١٨.
(٣) المصدر نفسه: ١١٠.

لعلَّ عقيدة السيِّد من أنَّ المُكاشفة أهمّ طريق للمعرفة؛ فعندما يقع للسَّالك كشفٌ؛ فهو بإذنٍ من الله تعالى، كما ذكر ذلك السيِّد للإمام عليّ عليه السلام: «أكمل الوصيِّين، وإمام المتَّقين، والكاشف بالإذن المُقدَّس المكين أسرار ربِّ العالمين»[1].

وتقدَّم من أنَّ السيِّد يعتقد أنَّ الإنسان لا تحصل له المُكاشفة إلَّا بإذنٍ منَ الله تعالى: «ألا ترى أنَّ كلَّ ملكٍ، وسُلطان إذا بالغ مع مملوكه في الإحسان، أدخلهُ حضرةَ وجودِه، وشرفِه، تارةً في الإذن لهُ في الخطاب، وتارةً بالجواب»[2].

ووصفَ المقامَ العالي لأهل البيت عليهم السلام من أنَّ كلَّ حركاتهم، وسكناتهم بإذنٍ، وفضلٍ من الله تعالى: «قاموا فبفضله، ولأجله، وأن جلسوا فبإذنه، وبقوله، وأن تحرَّكوا فبتأديبه، وإن سكنوا فبتهذيبه، وأنت بعيدٌ من هذه الحال؛ لأنَّك تعرف من نفسك أنَّ همَّتك مُتعلِّقةٌ بدار الزَّوال..»[3].

ومن هذا التَّأسيس مسألة الإذن ظهور الإمام الحجَّة الوليّ الأعظم المهديّ عجل الله فرجه الشريف: «فإنَّه صلَّى الله عليه حيٌّ موجودٌ على التَّحقيق، ومعذورٌ عن كشفِ أمره إلى أن يُؤذنَ له تدبير الله الرَّحيم الشَّفيق، كما جرت عليه عادة كثير من الأنبياء، والأوصياء»[4].

وذكرَ السيِّدُ في جملة من آثاره أنَّ بعض الأسرار إظهارها بإذن الله تعالى؛ فمثلًا ما ذكرهُ في كتابه أسرار الصَّلاة، وأنوار الدَّعوات: «إن أذن الله جلَّ جلاله في تأليفه؛ فإنِّني أصونه مدَّة حياتي إلى أن يأذن مَن له الإذنُ في بذله لأحدٍ قبل وفاتي»[5].

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٤٠.
(٢) فلاح السائل: ٦.
(٣) جمال الأسبوع بكمال العمل المشروع: ٣٥٩.
(٤) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٠٤.
(٥) فلاح السائل: ٩.

وكتب صاحب روضات الجنَّات[1]، لعلَّ منشأ إنشاءات السيِّد في الدعاء الإذن: «كأنَّه يرى نفسه مأذونًا في جعل وظائف مُقرَّرة لمواضع المكرمة، ومواقف صالحة، كما ترى أنَّه يذكر أعمالًا من عند نفسِه..»[2].

وثمَّة عبارة للمرحوم المجلسيّ: «بعض ما فتح الله ﷻ ممَّا أنشأته»[3]؛ لعلَّ السيِّدَ يشيرُ إلى هذا المعنى؛ لأهميَّة الإذن، وإنَّه يعتمد على أمر غير طبيعيّ؛ فمثلًا يعدُّ السيِّدُ الاستخارةَ في مرتبة متعاليةٍ، وهي نوعٌ من الإذن.

٢-٥ بيانٌ ونظرٌ للسيِّد في جزئيَّات الكشف والشُّهود

فضلا عن أنَّ السيِّد دافعَ عن الكشف، والشُّهود بشكلٍ عامٍّ، وتقدَّم ما نقلناهُ من عباراتِه في هذا المضمار، والآن ننقل في هذا القسم أوَّلًا بياناتِه، ثمَّ نحلِّلُها إجمالًا.

أ. جملةٌ من خصائص الكشف والشُّهود:

قال السيِّد في كتابِه فلاح السائل: «ولقد وجدتُ من السَّعادة، والإقبال بهدايته ﷻ، وما عرَّفني من مُلاطفته، ومُكاشفته، ولذَّة مُشافهته المُنزَّهة عن كلِّ ما لا يليقُ بكمال ربوبيَّته ما لا أقدر على وصفِه بمقالٍ، ألا ترى أنَّ كلَّ ملكٍ، وسُلطان، إذا بالغ مع مملوكه في الإحسان، أدخلَهُ حضرة وجودِه، وشرفِه، تارةً في الإذن لهُ في الخطاب، وتارةً

(١) سجل المرحوم عبَّاس القمِّيّ في هذا المجال: «أعرب السيِّد الفاضل المعاصر في الروضات في ترجمة هذا السيِّد الجليل (السيِّد ابن طاووس)، فأراد مدحه وتبجيله، فقدَحَه، وأخرج كتابه الشريف مصباح الزائر عن الاعتبار، وأخرج جملة من الأدعية والزيارات من حريم ساحة الأخبار لمجرد الخرص والتخمين، ومتابعة ما دار في أفواه القاصرين». الفوائد الرضويَّة في أحوال علماء مذهب الجعفريَّة: ٤/ ٣٣٠.

(٢) روضات الجنَّات في أحوال العلماء والسادات: ٤/ ٣٣٠.

(٣) بحار الأنوار: ١٠٤/ ٣٩.

بالجـواب، وَلَقَدْ كَانَ بَعْـضُ الْعَارِفِينَ يُكْثِرُ الْخَلَوَاتِ، فَقِيلَ لَهُ: أَمَا تَسْـتَوْحِشُ لِـمُفَارَقَةِ الْأَهْـلِ وَالْجَمَاعَاتِ؛ فَقَـالَ: أَنَا جَلِيـسُ رَبِّي، إِنْ أَحْبَبْـتُ أَنْ يُحَدِّثَنِي تَلَـوْتُ كِتَابَهُ، وَإِذَا أَحْبَبْتُ أَنْ أُحَدِّثَهُ دَعَوْتُهُ، وَكَرَّرْتُ خِطَابَهُ.

قلتُ أنا، وكم من مطلبٍ عزيزٍ، وحسن حريز في الخلوة بمالك القلوب، وكم هناك من قرب محبوبٍ، وسرٍّ غير محجوب»[1].

إضاءاتٌ:

١. يصـف السـيِّد أنَّه أدرك مُلاطفـة الله، والمُكاشـفة، ولذَّة المُشـافهة بالله تعالى: «ولقد وجدتُ من السَّـعادة، والإقبال بهدايتـه ﷻ، وما عرَّفني من مُلاطفته، ومُكاشفته، ولذَّة مُشافهته».

٢. أشار إلى أنَّ ما وجد في قلبه لهُ خصوصيَّتان:

- هـذه الصِّلـة مُنزَّهـة عن كلِّ مـا لا يليق به تعـالى: «كلُّ مـا لا يليق بكمال ربوبيَّته».
- هـذه الحالـة لا يمكـن وصفهـا بالمقـال: «مـا لا أقـدر عـلى وصفـه بمقالٍ».

٣. مـن منظـار السـيِّد دخـول العبـد إلى حريـم حضرته بيـده تعـالى: «ألا ترى أنَّ كلَّ ملـكٍ، وسُـلطان، إذا بالـغ مـع مملوكـه في الإحسـان، أدخله حضرة وجوده».

٤. يعتقد أنَّ الإنسان لا تحصل لهُ المُكاشفة إلَّا بإذنٍ من الله تعالى: «وشرفه تارةً في الإذن لهُ في الخطاب، وتارةً بالجوابِ».

(١) فلاح السائل: ٦.

ويبيِّن السيِّد كيفيَّة الارتباط، والعَلاقة عبر ما يقومُ به العرفاءُ من الخَلوَات، ويذكر نموذجًا لذلك: «وَلَقَدْ كَانَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ يُكْثِرُ الْخَلَوَاتِ، فَقِيلَ لَهُ: أَمَا تَسْتَوْحِشُ لِمُفَارَقَةِ الْأَهْلِ وَالْجَمَاعَاتِ؟ فَقَالَ: أَنَا جَلِيسُ رَبِّي، إِنْ أَحْبَبْتُ أَنْ يُحَدِّثَنِي تَلَوْتُ كِتَابَهُ، وَإِذَا أَحْبَبْتُ أَنْ أُحَدِّثَهُ دَعَوْتُهُ وَكَرَّرْتُ خِطَابَهُ»[1].

٥. ويعتقد أنَّ المُكاشفة متَّصلةٌ بربوبيَّته وتدبيره تعالى «المُنزَّهة عن كلِّ ما لا يليق بكمال ربوبيَّته»، أو «أنا جليسُ ربِّي»؛ فما ذكره السيِّد في مقام المُكاشفة، والمُناجاة، والسُّلوك الدُّعاء هو سنخ ارتباطٍ بربوبيَّته تعالى.

٦. عبارة: «وَ كَرَّرْتُ خِطَابَهُ»، يماثل ما نقل عن الإمام الصَّادق عليه السلام: «كَانَ يَتْلُو الْقُرْآنَ فِي صَلَاتِهِ، فَغُشِيَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا أَفَاقَ سُئِلَ مَا الَّذِي أَوْجَبَ مَا انْتَهَتْ حَالُكَ إِلَيْهِ، فَقَالَ مَا مَعْنَاهُ: **مَا زِلْتُ أُكَرِّرُ آيَاتِ الْقُرْآنِ، حَتَّى بَلَغْتُ إِلَى حَالٍ كَأَنَّنِي سَمِعْتُ مُشَافَهَةً مِمَّنْ أَنْزَلَهَا عَلَى الْمُكَاشَفَةِ وَ الْعِيَانِ**»، وهذا يدلُّ على أنَّ السيِّد ما يمارسه من أدبٍ، وسلوكٍ، مُستند إلى قول المعصوم عليه السلام، وفعله؛ ولذا يكرِّر ما أنشأه من الدُّعاء أيضًا[2].

٧. يستمرُّ في بيان الخلوة، وكيفيَّة ارتباط العارف بتلقِّيه مطلبًا عزيزًا: «قلتُ أنا: وكم من مطلبٍ عزيزٍ، وحسنٍ حريزٍ في الخلوة بمالك القُلوب، وكم هناك من قربٍ محبوبٍ، وسرٍّ غير محجوبٍ»[3].

وهذا يدلُّ على أنَّ مُكاشفة العرفاء لا يمكن وصفُها، كما قال السيِّد: «ما لا أقدر على وصفِه بمقالٍ».

(١) فلاح السائل: ٦.
(٢) لاحظ: الأمان من أخطار الأسفار والأزمان: ١٢٩.
(٣) فلاح السائل: ٦.

وكتب عن بعض العرفاء في هذا السِّياق: «فإنَّ في عباد الله ﷻ العارفين من يعرف وقت حضورهما، ووقت انفصالهما عند المساء، والصَّباح، بأسبابٍ لا تعرفها بالعبارة؛ بل إن شاء الله ﷻ عرَّفكَ ذلك حتَّى تعلمه على الإيضاح»[1].

ويصرِّح في موضعٍ آخر أنَّ أهل التَّوفيق التَّصديق ضاقتْ عليهم العبارة في التَّعبير عن مُشاهدة جلالِه؛ فعلمهم الله تعالى، ورسوله ألفاظًا لذلك: «إنَّما لـمَّا ضاقتِ العباراتُ على أهل التَّوفيق، والتَّصديق، علَّمهم الله ﷻ ورسوله ﷺ ألفاظًا في وصفِ جلالِ اللهِ على قدرِ قُصورِ علومِ العِبادِ»[2].

٨. تقدَّم أنَّ السيِّد يرى المالكيَّة المُطلقة لله تعالى، وهنا يؤكد أيضًا: «في الخلوة بمالك القلوب».

٩. لعلَّ مُراده ببعض العرفاء إشارة إلى نفسه، كما يُلاحَظ في تكملة كلامه: «قلت أنا»، وشبيه هذا ما ذكره في كتابه الكشف، عندما اعترض عليه العلماءُ، وهذا شاهد آخر على أنَّ السيِّد هو المقصود بقوله: «بعض العرفاء»، كما أنَّ من الواضح أنَّ السيِّد نقل مُكاشفات، وشهود، بنحوٍ صريحٍ، وأمَّا الجواب على اعتراض العلماء: «ولقد قال لي بعض العلماء المشكورين: لأيِّ سببٍ تتركُ مُجالستنا، ومُحادثتنا، وأنت تدعونا، وتقرِّبنا إلى ربِّ العالمين؟.

فقلتُ لهُ ما معناه: لأنَّني لو رأيتُ نفسي قويَّة كلَّ أوانٍ، وزمان، على أن أجالسكم، وأحدِّثكم، وأنا مشغولٌ في حال مُجالستكم، ومُحادثتكم بمُجالسة الله ﷻ ومُحادثته بقلبي، وسريرتي، وأنَّكم في ضيافة إقبالي على حُرمته بكلِّيَّتي،

(١) فلاح السائل: ٢٢٦.
(٢) المصدر نفسه: ١٠٠.

كنتُ جالستُكم، وحدَّثتُكم في كلِّ وقتٍ مُمكنٍ من الأوقات، ولكن أخاف أن أحدِّثكم، أو أجالسَكم، وقلبي تارةً ملآن منكم، ومفرَّغ من تذكاري أنَّني بين يدي الله جلَّ جلاله؛ فأعتقد ذلك كالكفر إذا عزلته عن ربوبيَّته، وولايته، ووليَّتكم، وأنتم مماليكه عليه، وعلى قلبي الذي هو موضعُ نظرِه، ومسكن معرفته.

وإن جالستُكم، وحدَّثتُكم، وقلبي تارةً معكم، وتارةً معه، اعتقدتُ ذلك شركًا، وهلَكًا، حيثُ جعلتُ موقعَكم من قلبي موقعِه»[1].

ب. الهدفُ من الكشفِ:

تقدَّم أنَّ الحقيقة بنظر السيِّد أفعالٌ، وأسماءٌ، وذات الله: «وتجلَّى لهم في آفاق ما اختصَّ به من مقدوراته، وأراهم في مرآة آياته في خلق ملكوته، وسماواته، ما كان كافيًا، وشافيًا في الدَّلالة على مُقدَّس ذاته، وعظيم صفاته»[2].

وإنَّ أقصى هدف السيِّد لم يكُنْ معرفة الحقيقة؛ بلِ الوصول إلى مقصود كمال الإنسان، وعدَّ الفكر، والنَّظرَ؛ بل والقلب أيضًا، يمثِّل حِجابًا: «متى وصل إلى غايةٍ تدلُّ على صانعٍ لوجودِه؛ فإيَّاه أن يصرفَ هذا النَّاظر خاطرهُ، أو يخلِّي سرائره منَ الاعتماد على مراحم ومكارم صانعه ووجوده»[3].

إضاءات:

١. يعتقد السيِّد أنَّ التجلِّي من مُختصَّات قدرتِه تعالى: «ما اختصَّ به من مقدوراته»[4].

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٦٣.
(٢) مهج الدعوات ومنهج العبادات: ١/ ٢.
(٣) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٦٩.
(٤) مهج الدعوات ومنهج العبادات: ٢.

٢. الاستناد إلى إرادته تعالى: «أراهم في مرآة آياته»[١].

٣. الهدف من التجلِّي هداية العباد إلى معرفة ذاته، وصفاته تعالى: «الدَّلالة على مُقدَّس ذاته، وعظيم صفاته»[٢].

٤. معرفة الذَّات، والصِّفات عن طريق «أراهم في مرآة آياته».

٥. عدَّ السيِّد هذا الطريق، المعرفة المرآتيَّة، إحدى طرائق المعرفة، وأنَّ لذلك قيمة أكثر من غيره: «كافيًا شافيًا».

٦. وصف هذا الطَّريق من أنَّه سماويّ ملكوتيّ: «ملكوته، وسماواته».

ج. مقدِّمة في كيفيَّة المُكاشفة:

«إن عاملت الله ﷻ بالصِّدق، والتَّحقيق، جعل قلبك مرآةً تنظر بها ما يريدُه هو ﷻ من العلوم من وراء سترٍ رقيق؛ فَفِي أَخْبَارِ صَاحِبِ الْمِلَّةِ: «الْمُؤْمِنُ مَنْ يَنْظُرُ بِنُورِ اللهِ»[٣].

يمكن من هذا النَّصِّ استخراج مُقدِّمة كيفيَّة المُكاشفة عند السيِّد؛ ففي نظرهِ أنَّ مقدِّمة المُكاشفة هي الصِّدق، والتَّحقيق بالمُعاملة مع الله تعالى، «إنْ عاملت الله ﷻ بالصِّدق، والتَّحقيق»، ويترتَّب على ذلك مُقدِّمة أُخرى:«جعل قلبَكَ مِرآة».

وأمَّا مُتعلِّق المُكاشفة، فهي العلوم التي تُنقشُ بالقلب بإرادة الله تعالى: «ما يريدهُ هو ﷻ من العلوم»؛ أي: تلقِّي حضوريّ، وشهوديّ حقيقيّ؛ أمَّا كيفيَّة تحقُّق ذلك: «ستر رقيق».

(١) مهج الدعوات ومنهج العبادات: ١/ ٢.
(٢) المصدر نفسه
(٣) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٩٣.

ويمكن هنا ذِكر بعض الإشارات حول المُكاشفة في نصِّ السيِّد المُتقدِّم:

١. ينبغي أن تكونَ المُعاملة مع الله تعالى بالصِّدق، والتَّحقيق «إن عاملت الله ﷻ بالصِّدق، والتَّحقيق»، بمعنى أن يكون القول، والفعل واحدًا في العلن، والباطن، ويكون في العقل والقلبِ، والنيَّة لا أكبر، ولا أعزَّ من الله تعالى، ولا يشتغل بغير الله، ولا يرجِّح غيرَه عليه[١].

«ومعنى قولي: أن يكون هذا قولك عبادة ومعاملة؛ أي أن يكون الله ﷻ في قلبك، وعند عقلك، عظيمًا على قدر ما وهبك من معرفة ذاته، وصفاته الكاملة؛ فتقصد بهذا الاعتقاد في عظمته..

وأمَّا قولي: أن يكون صادقًا؛ فأريد بذلك أن يكون فعلُك لقولك موافقًا.. تكون سريرتك موافقة لعلانيَّتك في أنَّه لا شيء أعظم منه ﷻ في قلبك، وعقلِك، ونفسِك، ونيَّتك، ولا يكون شيء أعزُّ عليك منه، ولا يشغلك في تلك الحال شيء عنه..»[٢].

٢. جعل الله ﷻ القلبَ مرآةً: «جعل قلبك مرآة».

٣. عندما يريد الله تعالى: «تنظر بها ما يريده هو ﷻ منَ العلوم».

واستند السيِّد في بيانه بالنبويّ الشَّريف ﷺ «الْمُؤْمِنُ مَنْ يَنْظُرُ بِنُورِ اللهِ».

ويمكن تسجيل ملاحظتينِ على هذا الحديث:

أوَّلًا: المُكاشفة، والمُشاهدة من مختصَّات المؤمن.

ثانيًا: تحقُّق المُكاشفة من المدِّ، والنّور الإلهيّ.

(١) لاحظ: فلاح السائل: ١٠٠.
(٢) المصدر نفسه: ٩٩.

٤. من المُلاحظات المهمَّة التي يذكرها السيِّد في موضعٍ آخر أنَّ الشُّهودَ، والمُكاشفة لا تكون من دون إرادة الله تعالى، وجعْلِه: «فإنَّ الظَّفر بالله على اليقين»[١]، ولا يحصل شيء من دونه تعالى: «وما كان يحصل ما حصل لولاهُ»[٢]، كما يشير من أنَّ البواطن لا طريقَ إليها إلَّا من عند الله تعالى: «إنَّ البواطن لا طريقَ إليها إلَّا من عند علَّام الغيوب»[٣].

٥. عدَّ السيِّد من الطَّرائق لكشف الأسرار التَّوفيق «فإن أدركت يا ولدي موافقة توفيقك لكشف الأسرار عليك»[٤].

٦. إنَّ المعرفة الحاصلة من الكشف لا يقع فيها الخطأُ، ولا تشتبهُ: «لا يشتبه عليك»[٥]، ويستغني عن طريق العقل، والنَّقل «تستغني بذلك عن الحُجج المعقولات، ومن الرُّوايات »[٦].

ويمثِّل ذلك بأخبار الأنبياء (صلَّى الله على نبيِّنا وآله، وعليهم السلام) عن الغيب: «الأنبياء يخبرون بالغيب من غير سببٍ من البشر، وغيرهم يخبرُ بأسباب من توصله بالبشر»[٧]، «يكون تعريف الأنبياء، والأوصياء، بالغائبات بغير أستاذٍ»[٨]، «إنَّ تعريفَهم للعباد بالغائبات ليس عن أستاذ، ولا استعمال شيء من الآلات، ولا في وقت يحتمل الفكر في ترتيب الدَّلالات، وأنَّ الأنبياء لم يقتصرِ الله ﷻ بهم في المُعجزات على التّعريف

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٩٢.
(٢) المصدر نفسه: ١٥٥
(٣) الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف: ١/ ١٩٤.
(٤) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٠٤.
(٥) المصدر نفسه: ١٠٤.
(٦) المصدر نفسه.
(٧) فرح المهموم: ٥٠-٥١.
(٨) المصدر نفسه: ٨٥.

بالغائبات؛ بلْ جعل لهم من الآيات مثل إحياء الأموات، ومثل إبراء المرضى بغير معالجاتٍ، ومثل إجابة الدعوات في أوقاتها المعيَّنات، ومثل الحكم على مولود قبل ولادته، ومثل نطق الحيوانات الخالية من العقل بتصديق من يصدقه الله تعالى منهم بتزكيته، وشهادة الجمادات لهم بما يريدونه منهم بالله جلَّ جلاله منه، وغير ذلك»[1].

وخُلاصة النَّظر الثَّالث هو بيان تجرِبته، وتقريره العلميّ عن التَّجارب العرفانيَّة، والشُّهوديَّة، والمُكاشفات له.

د. المُكاشفة طريق غير قابل للعدِّ والإحصاء:

«واعلمْ أنَّ تعريف الله جلَّ جلاله لعباده بشيءٍ من مُراده؛ فإنَّه لا ينحصر بمُجرَّد العقل جميع أسبابه، ولا يدرك بعين الشَّرع تفصيل أبوابه»[2].

الإضاءات:

١. تقدَّم أنَّ السيِّد لا يحصر طريق معرفة الله عزَّ وجلَّ بمُجرَّد العقل، والأسباب العقليَّة، كما أنَّه يعتقد أنَّ طريق الشَّريعة لا تمنحنا إدراك أبواب معرفة الله تعالى التفصيليَّة؛ فلا يحصل التَّفصيل عن طريق الأسباب العقليَّة، ولا عن طريق الشَّرع.

٢. ويعلِّل السيِّد أنَّ هناك طريقًا غير طريق العقل، والشَّرع بقُدرته تعالى الذاتيَّة، وهو تعالى يمدُّ في زمن، ووقت غير معلوم: «لأنَّ الله جلَّ جلاله قادرٌ لذاته؛ فهو قادرٌ على أن يعرف عباده مهما شاء، ومتى شاء، بحسب إرادته»[3].

(١) فرح المهموم: ٢١٧.
(٢) إقبال الأعمال: ١/ ١٦.
(٣) المصدر نفسه.

٣. يكتب السيِّد لإثبات مُدَّعاه المُتقدِّم: «أعرفُ على اليقين من يعرف أوائل الشُّهور، وإن لم يكُنْ ناظرًا إلى الهلال، ولا حضر عنده أحدٌ من المُشاهدين، ولا يعمل على شيءٍ ممَّا تقدَّم من الروايات، ولا بقول مُنجِّمٍ، ولا باستخارة، ولا بقول أهل العدد، ولا في المنام؛ بل هو من فضل ربِّ العالمين الذي وهبه نورَ الألباب من غير سؤالٍ، وألهمه العلمَ بالبديهيَّات من غير طلبٍ لتلك الحال، ولكن هو مكلَّف بذلك وحده على اليقين، حيث علم به على التّعيين»[١].

٤. يعدُّ السيِّد المعرفة لأوَّل كلِّ شهرٍ من الأمور الوجدانيَّة، وهي خلاف الطرائق المعروفة، وما يذكر من علاماتٍ لشهر رمضان لمن لم يهبْه الله تعالى فضلَهُ؛ ليعلم ذلك: «واعلمْ أنَّ الله ﷻ تفضَّل علينا بأسرارٍ ربَّانيَّة، وأنوار محمَّديَّة، ومبارٍّ علويَّة، منها تعريفنا بأوائل الشُّهور، وإن لم نشاهد [يشاهد] هلالها، وليس ذلك بطريق الأحكام النُّجوميَّة، ولا الاستخارات المرويَّة، وإنَّما ذلك، كما قُلنا، بالأمور الوجدانيَّة الضَّروريَّة؛ وإنَّما نذكر من دلائل شهر رمضان أو علاماته أو أماراته لمن لم يتفضَّل الله ﷻ عليه بما تفضَّل به علينا من هِباتِه، وكراماته، وإن لم يلزم العمل بها في ظاهر الشَّريعة النَّبويَّة»[٢].

«فيكون الظَّاهر بمعرفة الهلال على اليقين بدلالةٍ من ربِّ العالمين، قد تشرَّف بما يعجزُ عنه شكرُ الشاكرين، والحمد للهِ الذي جعلنا بذلك عارفين»[٣].

٥. يعدُّ السيِّد استتار الهلال عقوبة من الله تعالى: «إنَّ الهلال قد يَستِترُ عقوبةً من الله ﷻ»[٤].

(١) إقبال الأعمال: ١/ ١٦.
(٢) المصدر نفسه: ١٥.
(٣) المصدر نفسه: ٣٦.
(٤) المصدر نفسه.

هـ. الحشر والنشر مع الملائكة:

«فإنَّ في عبـاد الله ﷻ العارفين، من يعرف وقتَ حضورِهما، ووقت انفصالهما عند المساء، والصَّباح بأسبابٍ لا تعرفها بالعبارة؛ بل إن شاء الله ﷻ عرَّفك ذلك حتَّى تعلمَه على الإيضاح»[1].

إضاءاتٌ:

١. يذكر أنَّ هناك عرفاء يعرفون وقتَ حضور الملكينِ المُكلَّفين بتسجيل الأعمال، ووقـت انفصالهما: «فإنَّ في عباد الله ﷻ العارفين من يعرف وقت حضورهما، ووقت انفصالهما عند المساء، والصَّباح».

٢. وثمَّة تصريحٌ في نصِّ السـيِّد مهمٌّ جدًّا، من أنَّ أسباب الوصول إلى هذه المرتبة لا يمكن صيغتها بالعبارة، اللهمَّ إلَّا أن يشـاء الله أن يعرِّفك إيَّاها: «بأسـبابٍ لا تعرفهـا بالعبـارة؛ بـل إن شـاء الله ﷻ عرَّفـك ذلـك حتَّـى تعلمَه».

يقول الجامي:

لا تسألني عـن كيفيَّة شراب عشقِه

والله لا تذوق هذه الشَّراب حتّى تشربَه[2]

٣. بحسـب ما جاء في النَّصِّ المُتقدِّم بعد الوصول إلى المقام المذكور، تكون كيفيَّتُه واضحةً جدًّا: «على الإيضاح».

(١) فلاح السائل:٢٢٦.

(٢) هذا البيت للشـاعر والعارف المعروف عبد الرحمن الجامي (ت٨٩٨هـ)، وهو باللغة الفارسيَّة، وهـذا بيت من جملة أبيات ينقلهـا المؤلِّف لاحقًا. لاحظ: ديوان الجامي، الغزليَّات، رقم: ٩٤١. (م).

٤. ومن عبارة: «لا تعرفها بالعِبارة»؛ فمن الواضحِ أنَّ المُكاشفة مثلُها مثل سائر الشُّهودات، لا يمكن وصفُها بالعبارة، وأشرنا إلى هذا المطلب آنفًا.

وكذا يذكر السيِّد لفهم الحشر، والنَّشر مع الملائكة طريقينِ: (عقليّ، ونقليّ)، وأمَّا المُكاشفة القلبيَّة فشرطُها السُّلوك، يقول السيِّد: «وقد نبَّهنا على تحقيق ما قلناهُ عند وداع الملكَينِ وقت الغروب، وكشفنا ذلك بالمعقولات، وبالروايات، وهو حجَّةٌ على مَن بلغهُ ذلك لعلَّام الغيوب.

أقول: فإذا ذهبتِ الحُمرة من أفق المشرق، مع ارتفاع موانع مشاهدتها، أو غلب الظنُّ بزوالها عند الموانع الحائلة بين العبد، وبين معرفتِها، وكان وقت حضور ملكَي الليل بمُقتضى المنقول من الروايات، إذا كنت لا تعرف ذلك من طريق المراحم الربَّانيَّات؛ فسلِّم عليهما مثل سلامك عند إقبال النَّهار، وأشهدِ الله ﷻ، وأشهدْهما بما أشهدتَ ملكَي النَّهار»[1].

إضاءاتٌ:

يشير السيِّد إلى الزَّمان، ولهذا الأمر أهميَّة، وله طريقان:

١. المعرفة التعبُّديذَة بمُقتضى المنقول من الروايات.

٢. المعرفة الشُّهوديَّة عن طريق المراحم الربَّانيَّات.

من لم يتعرَّف إلى الطَّريق الثاني، يلجأ إلى الطَّريق الأوَّل.

ينبِّه السيِّدُ أن لا يشغلك علمُك بالملائكة الحافظين عن الله تعالى: «ولا يشغلنَّك الملائكة الحافظون، ولا أحدٌ من بني آدم الحاضرون، الذين هم

(١) فلاح السائل: ٢٢٧.

بعد وقتٍ قليلٍ ميِّتون عن مولاك، ومولاهم، ومالك دنياك، وآخرتك، ودُنياهم، وآخرتهم»[1].

لعلَّ السيِّد حصل على هذه المُشاهدات من خلواته، ويمكن عدُّ ما كان عليه من حالة الجذب ثبوته في طريق السلوك، وعدُّ الجهد، والتعلُّق بطريق السُّلوك للوصول إليه تعالى، وربَّما هذه العبارةُ تشير لهذا المعنى:

«فلا تلزم هذه العلامة من التَّعريف، واطلبْ زيادة الكشف من المالك الرَّحيم، الرَّؤوف، اللطيف»[2].

٣- مُكاشفات السيِّد

يُفترض الإشارة إلى ملاحظاتٍ عدَّة قبل نقل شطر من مُكاشفات السيِّد:

٣-١. تحصل هذه المسائل عادةً بعد الحصول على الملكاتِ الفاضلة

«وهذا كلُّه بعد أن تحلَّى بالملكات الفاضلة التي تركته فائقًا بين أفراد نوعه، وأهَّلته للتشرُّف بمُشافهة (حجَّة الوقت الإمام المنتظر عليه السلام إلى كرامات أثبتتها الجوامع، وتحدَّث بها الثِّقات، وحدَّث بجملة منها نفسه، أعلى الله مقامه، امتثالًا لقوله سبحانه، وتعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾»[3].

٣-٢. يكتب السيِّد عن معرفته بأهل المُكاشفة

«فكلُّ هذه المواهب شيءٌ منها جرَّبناه، وشيءٌ منها عرفناهُ، وسمعناهُ»[4].

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٤٧.
(٢) إقبال الأعمال: ١/ ٦٦.
(٣) الملاحم والفتن في ظهور الغائب المنتظر عليه السلام: ٨.
(٤) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٩٢.

٣-٣. ما حصل للسيِّد من لذّةٍ، وسعادةٍ في المُكاشفة

ولذا نلاحظهُ يكرِّرها على ابنه محمَّد، وإليك بعضًا منها:

«أراك الله ﷻ بعين أنواره ما تحتاج إلى معرفته من أسراره»(١).

«أسعدك الله ﷻ بإقباله، ومُكاشفة جلالِه»(٢).

«جمَّلك الله ﷻ بإقباله، ومُكاشفة جلالِه»(٣).

«أودعَ الله ﷻ سرائرك أنوار المُكاشفة وديعة مُستقرَّة مُتضاعفة»(٤).

«عمَّر الله ﷻ قلبك بمُكاشفته، وجلال نعمته، ومُراقبته»(٥).

«كشف الله ﷻ لك عن مُراده بيد كمال إسعاده لك، وإنجاده، وأوفاده»(٦).

يدعو لابنه أن يكون نومُه نومَ أهل المعرفة، والمُراقبة: «جعلهُ الله ﷻ [منامك] كنوم ذوي المعارف، والمُراقبات»(٧).

لا يخفى أنَّه جرَّب، وتذوَّق نوم أهل العرفان، والمُراقبة؛ ولذا يدعو لابنه به، ويعدُّه منامًا مختلفًا، كما في رؤية النبيّ إبراهيم (صلَّى الله على نبيِّنا وآله وعليه السلام)؛ إذ قال لابنه عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ﴾(٨).

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٩١.
(٢) المصدر نفسه: ٧٧.
(٣) المصدر نفسه: ١١١.
(٤) المصدر نفسه:١١٩.
(٥) المصدر نفسه: ١٥٤.
(٦) المصدر نفسه: ١٠٩.
(٧) المصدر نفسه: ١٧٨.
(٨) سورة الصافَّات، الآية: ١٠٢.

نشير إلى جُملةٍ من مُكاشفات السيِّد، ونسجِّل عليها بعض الملاحظات:

المُكاشفة الأولى: مُكاشفته في حرم أمير المؤمنين عليه السلام

ينقل العلَّامة المجلسيُّ من كتاب غياث سلطان الورى، عن كتاب الفوائد المدنيَّة للمرحوم المُحدِّث الاسترآباديّ مُكاشفةً للسيِّد.

يقول السيِّد ابن طاووس: «كنتُ قد توجَّهت أنا، وأخي الصَّالح محمَّد بن محمَّد ابن محمَّد القاضي الآويّ ضاعف الله سعادته، وشرَّف خاتمَته، من الحِلَّة إلى مشهد مولانا أمير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليه، في يوم الثلاثاء سابع عشر شهر جُمادى الأخرى، سنة إحدى وأربعين وستمائة؛ فاختار الله لنا المبيت بالقرية التي تسمَّى دورة ابن سنجار، وبات أصحابنا، ودوابّنا في القرية، وتوجَّهنا منها أوائل نهار يوم الأربعاء ثامن عشر الشَّهر المذكور؛ فوصلنا إلى مشهد مولانا عليّ صلوات الله وسلامه عليه قبل ظهر يوم الأربعاء المذكور؛ فزُرنا، وجاء الليل في ليلة الخميس تاسع عشر جمادى الأخرى المذكورة؛ فوجدت من نفسي إقبالًا على الله، وحضورًا، وخيرًا كثيرًا؛ فشاهدت ما يدلُّ على القبول، والعناية، والرَّأفة، وبلوغ المأمول، والضِّيافة.

فحدَّثني أخي الصَّالح محمَّد بن محمَّد الآويّ ضاعفَ اللهُ سعادته، أنَّه رأى في تلك الليلة في منامِه كان في يدي لقمة، وأنا أقول له هذه من فم مولانا المهديّ عليه السلام، وقد أعطيتُه بعضَها.

فلمَّا كان سحرُ تلك الليلة، كنتُ على ما تفضَّل الله به من نافلة الليل؛ فلمَّا أصبحنا به من نهار الخميس المذكور، دخلتُ الحضرة، حضرة مولانا عليّ صلوات الله عليه على عادتي؛ فورد عليَّ من فضل الله، وإقباله، والمُكاشفة ما كدتُ أسقط على الأرض، ورجفتْ أعضائي، وأقدامي، وارتعدتُ رعدةً هائلة على عوائد فضله عندي، وعنايته

لي، وما أراني من برِّه لي، ورفدي، وأشرفتُ على الفناء، ومُفارقة دار الفناء، والانتقال إلى دار البقاء، حتَّى حضر الجمال محمَّد بن كنيلة[1]، وأنا في تلك الحال، فسلَّم عليَّ؛ فعجزتُ عن مُشاهدته، وعن النَّظر إليه، وإلى غيره، وما تحقَّقته؛ بل سألتُ عنه بعد ذلك؛ فعرَّفوني به تحقيقًا، وتجدَّدت في تلك الزِّيارة مُكاشفات جليلة، وبشارات جميلة»[2].

إضاءات:

١. لعلَّ السيِّد يشير إلى هذه المُكاشفة عندما كتب من أنَّه بقي ثلاث سنوات عند حرم أمير المؤمنين عليه السلام، وعبَّر عنها: «بعنايات عظيمة في الدِّين، والدُّنيا»[3]، كما عبَّر عن حاله في تلك السَّنوات: «ما عرفت الله جل جلاله تفضَّل على أحدٍ مثلها ممَّن شرَّفه بسكنى ذلك المقام المكين»[4].

٢. إنَّ السيِّد عندما استشعر الحال، وأحاط به ذلك الإحساس، عبَّر عنه: «فوَرَدَ عَلَيَّ».

٣. ذكر السيِّد أنَّ منشأ هذه المُكاشفة فضلٌ، وإقبال من الله تعالى: «من فضل الله، وإقباله، والمُكاشفة».

٤. يماثلُ هذه العبارة: «ما كدت أسقطُ على الأرض، ورجفتْ أعضائي، وأقدامي، وارتعدتُ رعدةً هائلةً على عوائد فضله عندي، وعنايته لي، وما أراني من برِّه لي، ورفدي، وأشرفت على الفناء، ومفارقة دار الفناء،

(١) في دار السلام، للميرزا النوريّ: ١/ ٣٩١ (كنبلة)، وفي أجوبة مسائل ورسائل في مختلف فنون المعرفة، لابن إدريس: ٥١٤ (كتيلة) (المراجع).
(٢) بحار الأنوار: ٥٣/ ٢٠٨.
(٣) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٧٤.
(٤) المصدر نفسه: ١٢.

والانتقال إلى دار البقاء»، وفي مكان آخر قوله: «وأذهل إقباله قوَّة المُكاشفين، وزلزل وصاله أقدام العارفين»[1].

٥. كان السيِّد يعلم عبر عبارته هذه: «على عوائد فضله عندي، وعنايته لي، وما أراني من برِّه لي، ورفدي»[2]، وهي إشارة، ورسالة: «فوجدتُ من نفسي إقبالًا على الله، وحضورًا، وخيرًا كثيرًا؛ فشاهدتُ ما يدلُّ على القبول، والعناية، والرَّأفة، وبلوغ المأمول، والضِّيافة»[3].

٦. لا يخفى أنَّ هناك فرقًا بين ما يحصل عبر المحسوسات، وبين ما يحصل عبر الوجدانيَّات؛ فلذا قال: «وجدتُ من نفسي»؛ فهو يشير إلى الوجدان الداخليّ.

٧. يعدُّ السيِّد، وهذا مهمّ، جدًّا أنَّه لا يحصل هذا من دون موجِّه؛ ولذا يخاطب السيِّد ابنَه محمَّدًا بقوله: «إن أدركت يا ولدي موافقة توفيقك لكشف الأسرار عليك عرَّفتك»[4].

٨. يُفهم من هذَين العبارتينِ:

«فشاهدتُ ما يدلُّ على القبول، والعناية، والرَّأفة، وبلوغ المأمول، والضِّيافة».

«تجدَّدت في تلك الزِّيارة مُكاشفات جليلة، وبشارات جميلة».

أنَّ السيِّد واعٍ لهذه الحالات، وله سابقة في هذه المُكاشفات، ولكن هذه المُكاشفة جديدة بالنِّسبة إلى غيرها.

(١) التحصين لأسرار ما زاد من كتاب اليقين: ٥٢٩.
(٢) بحار الأنوار: ٥٣/ ٢٠٨.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٠٤.

٩. اعتناء السيِّد بساحة الوصيِّ أمير المؤمنين عليه السلام، وحضرته، وتوجُّهه إليه: «أكمل الوصيِّين، وإمام المتَّقين، والكاشف بالإذن المُقدَّس المكين أسرار ربِّ العالمين»[١]، «ما عرفت الله جلَّ جلاله تفضَّل على أحدٍ مثلها ممَّن شرَّفه بسكنى ذلك المقام المكين»[٢].

وسيأتي إن شاء الله في القسم الثاني ما يذكرهُ السيِّد عن أمير المؤمنين عليه السلام من أنَّه منبعُ العلوم الإسلاميَّة، كالفقه، وعلم التَّفسير، وعلم النَّحو، وكذا نسبة الصوفيَّة تنتهي لهُ عليه السلام.

النَّموذج الثاني: إلقاءات القلب من مُكاشفات السيِّد

نطالعُ جملةً من مُكاشفات السيِّد في آثاره، ككُتب الأدعية، وكمثال على ذلك ما كتبهُ السيِّد لابنه محمَّد عن كتاب (المهمَّات والتتمَّات)، فيه إشارة إلى الأسرار: «فكم قدِ اشتمل عليه من الأسرار الكاشفات لأنوار السَّعادات»[٣].

وأيضًا ما جاء في كتاب فلاح السائل: «فعزمت أن أجعل ما أختارُه بالله جلَّ جلاله ممَّا رويته، أو وقفت عليه، وما يأذن جلَّ جلاله لي في إظهاره من أسراره [كما يهديني إليه، وما أجده من كيفيَّة الإخلاص، وما يريه الله جلَّ جلاله لعقلي، وقلبي من مقامات الاختصاص، وما ينكشف لي بلطف مالكِ الكشف من عيوب الأعمال، وإحضار الغفلة، والإهمال»[٤].

وكذا عبَّر عن بعض مؤلَّفاته، مثل: أسرار الصَّلاة، وأنوار الدَّعوات: «إنْ أذِنَ

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٤٠.
(٢) المصدر نفسه: ١٢.
(٣) المصدر نفسه: ١٧٢.
(٤) فلاح السائل: ٧.

اللهﷻ في تأليفـه؛ فإنَّني أصونه مدَّة حياتي، إلَّا أن يـأذنَ مَن لهُ الإذن في بذلِه لأحدٍ قبل وفاتي»[1].

وسيأتي الحديث عن مكانة الدُّعاء، وأهميَّته عند السيِّد، وإنشائه للأدعية؛ فهو إذا لم يجدْ دعاءً، يُنشئ واحدًا بالاستناد إلى الجواز الدينيّ[2]، والإذن الباطنيّ[3].

يقـول السـيِّد: «و إذا كان الذي أجـدهُ من الدَّعوات المنقـولات مختصرًا عمَّا يحتاج إليه الإنسـان في المهـمَّات في شيء ممَّا يحتوي عليـه هذا الكتاب، أو لم أجـدْ دعاءً لبعض الأسـباب؛ فإنِّي أُنشـئ دعاءً لذلك الوجه مـن مواهب اللهﷻ الأرحـم الأكرم، الذي ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾[4]»[5].

ويذكـر السـيِّد وصفًا للأدعيـة الذي يُنشـؤها: «ربَّما يكـون الدُّعاء الذي نُنشـؤه كالمنثور، والقرائن، والسَّجع، وعسى أن يوجد في بعض الروايات.. لأنَّنا رأينا، ورويْنا أدعيةً كثيرة عن النبيّﷺ، والأئمَّة عليهم أفضل الصلاة والسَّـلام، على سبيل السَّجع، والنَّثر، وترتيب الكلام»[6].

(١) فلاح السائل: ٩.

(٢) يقول السـيد: «فَقَـدْ رَأَيْتُ فِي كِتَابِ عَبْدِ اللهِ بْنِ حَمَّادٍ الأَنْصَارِيِّ، فِـي النِّصْفِ الثَّانِي مِنْهُ، عِنْدَ مِقْدَارِ ثُلُثِهِ، بِإِسْـنَادِهِ، قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام: عَلِّمْنِي دُعَاءً. فَقَالَ: **إِنَّ أَفْضَلَ الدُّعَاءِ مَا جَرَى عَلَى لِسَانِكَ**». الأمان من أخطار الأسفار والأزمان: ١٩.

(٣) كتـب بعـض عنه أنَّه ينشـأ الدعاء: «كأنَّه يرى نفسـه مأذونًـا في جعل وظائف مقـرَّرة لمواضع المكرمة، ومواقف صالحة، كما ترى أنَّه يذكر أعمالًا من عند نفسه..». روضات الجنَّات في أحوال العلـماء والسـادات: ٤/ ٣٣٠. وكذا ذكر العلَّامة حسـن زاده الآمليّ أنَّه ينشـأ الدعاء وهو عالم مستبصـر. لاحظ: رسالة نور على نور: ٧١-٧٢.

(٤) سورة العلق، الآية: ٥.

(٥) الأمان من أخطار الأسفار والأزمان: ١٩.

(٦) المصدر نفسه: ١٩.

واستند السيِّد في إنشائه للدُّعاء الى آية قرآنيَّة، وبالإفاضة، والتلقِّي من الله تعالى: «ونحن ما نذكر في الإنشاء من الدُّعاء إلَّا ما نجدُه من غير رويَّة، ولا كلفة؛ بل إفاضة علينا من مالك الأشياء الذي هو ربِّي، وحسبي كما قال ﷻ: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾[1]»[2].

يذكر السيِّد علَامتَينِ لما يُفاضُ على قلبه:

- إنَّه غير مسبوقٍ بفكرٍ، ورَويَّة «نجده من غير رويَّة».
- يحصل من دون كلفةٍ، ولا جهد بشريّ، كأنَّه حال المجذوبين السلك: «ولا كلفة فيه».

النَّموذج الثالث: شهود مراحل الخلق

يذكر السيِّد في موضعٍ آخر مُكاشفة له: «رأيت بما وهبني الله ﷻ من عين العناية الإلهيَّة في مرآة جود تلك المراحم، والمكارم الربَّانيَّة، كيف أنشأني، وربَّاني، وحملني في سفن النَّجاة على ظهور الآباء، وأودعني في البطون، وسلَّمني ممَّا جرى على مَن هلك من القرون، وهداني إلى معرفته، وهو ربِّي الذي يقول للشيء كُنْ فَيَكُونُ، ونظرت به ﷻ في معنى تاريخ، وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولى فَلَوْ لا تَذَكَّرُونَ، وعرَّفني مُراده ﷻ منِّي، وكاشفني عقلًا، ونقلًا عمَّا يُرضيه عنِّي، وجدت المنَّة له ﷻ في هدايتي بسعادتي في إخلاص العبادة لذاته، من غير تعلُّق خاطر بطلب هباته، أو خوف نقماته، وتيقَّنتُ أنَّه ﷻ ملك حياتي، ولم يزلْ أحقُّ بها منِّي، وكان ﷻ أهلًا لأن يشغلني عظمُ جلالِه، وإقباله عنِّي»[3].

(١) سورة يوسف، الآية: ٣٧.
(٢) الأمان من أخطار الأسفار والأزمان: ٢٠.
(٣) فلاح السائل: ٥.

النموذج الرابع: معرفة أوَّل كلِّ شهر وليالي القدر

صرَّح السيِّد أنَّه يعرف شخصًا يعلم أوَّل كلِّ شهر[1]، ويذكر أنَّ الله تعالى بعنايته، وتفضُّله عليه، علم ذلك أيضًا: «اعلمْ أنَّ الله ﷻ تفضَّل علينا بأسرارٍ ربَّانيَّة، وأنوارٍ محمَّديَّة، ومبارٍّ علويَّة، منها تعريفُنا بأوائل الشُّهور»[2].

وعبَّر عنه أنَّه تفضُّل «وغير مسبوقٍ بعملِ العبد: «تفضَّل علينا».

وممَّا جاء في هذا السِّياق أنَّ السيِّد الأجلّ الأعظم رضي الدين بن طاووس نفعَنا الله بعلومِه له تفضُّلات معرفةِ بداية كلِّ شهر[3]: «تعريفنا بأوائل الشُّهور».

مع أنَّ السيِّد يعطي مكانةً مهمَّة للاستخارة، ولكن بعد الاطِّلاع على أسرار الاستخارة، بما أُلقي إليه، يعدُّها بعيدةً عن الصَّواب، ويكتب في ردِّ دعوة الحاكم العبَّاسيّ: «وكتبتُ إليه غير مرَّة: إنَّ الذي كان يحملني على لقاء الملوك في بداية الأعمار، التَّعويل بالاستخارة، وقد رأيت الآن بما وهبني الله ﷻ من الأنوار، والاطِّلاع على الأسرار، أنَّ الاستخارة في مثل هذه الأسباب بعيدة عن الصَّواب، وخاطرة مع ربِّ الأرباب»[4].

لا يخفى أنَّ السيِّد له اطِّلاع على أكثر من معرفة أوَّل الشَّهر، وليالي القدر، وأمثالهما، وأنَّه اعتبر بالاستخارة زمنًا إلى أن ظهر له أسرارُها، وتقدّم ما قالهُ عنها.

عدَّ بعضُ أنَّ السيِّد حصل على مقام السرِّ، وهي حالة نفسانيَّة يحصل عليها الإنسان بعد الجهاد الأكبر، وغير قابل للوصف، ولا يمكن معرفتُها إلَّا من أدرك

(١) إقبال الأعمال: ١/ ١٦.
(٢) المصدر نفسه: ١/ ١٥.
(٣) شفاء الصدور في شرح زيارة عاشور: ٣٨٩.
(٤) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٦٢.

شـيئًا منها: «حاكية عن حالة نفسـانيَّة تحصل للإنسان بعد الجهاد الأكبر الذي أشار إليه رسـول الله صلى الله عليه وآله في قوله: **قد فرغنا من الجهاد الأصغـر، وبقي علينا الجهاد الأكبر**.. إلخ، وهـي كالمَلاحة، أو الفصاحة يدركُ، ولا يُوصـف، ولا يمكن معرفتُها لمن لم يرزقْ منها شـيئًا، وقد يعبَّر عنها بالسرِّ؛ فتكون منشـأً لآثار الربوبيَّة، ويقال لها بالفارسيَّة باطن كما وصل إلينا من حالات بعضهم، كابن طاووسٍ، وبحر العلوم، والمُقدَّس، والأنصاريّ، والعلَّامة، وأمثالهم، كالبهائيّ، والمجلسيّ الثاني، وكاشـف الغطاء الشـيخ جعفر قدَّس اللهُ أسرارَهم»[1].

ويشير السيِّد في موضعٍ آخر إلى إمكان معرفة ليلة القدر: «اعلمْ أنَّ الله جلَّ جلاله قادرٌ أن يعرِّف بليلة القدر من يشاء، كما يشاء، وبما يشاء»[2].

إضاءات:

١. عدَّ السيِّد هذا تفضُّلًا، وهو منوط بالله تعالى: «من يشاء، كما يشاء، وبما يشاء».

٢. عدَّ السيِّد أسباب هذا النَّحو من المعرفة من الله تعالى «بما يشاء».

٣. يعتقد السـيِّد أنَّ هذا النَّحو من المعرفة، وعلاماتها مُختلفة عنِ المعرفة المُتعارفة، وعلامتها: «فلا تلـزم هذه العلامة من التَّعريف، واطلبْ زيادة الكشـف منَ المالك الرَّحيم الرَّؤوف، اللطيف»[3].

٤. يشير السيِّد لإثبات قوله بإمكان هذه المعرفة، فيذكر شخصًا يعرفُ ليلة القدر على نحو اليقين: «فإنَّني عرفتُ، وتحقَّقت من بعضِ منْ أدركتُه أنَّهُ كان يعرف ليلة القدر كلَّ سنةٍ على اليقين»[4].

(١) المعالم الزلفى في شرح العروة الوثقى: ٥١.
(٢) إقبال الأعمال: ١/ ٦٦.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) المصدر نفسه.

٥. يوصي السيِّد: مَن لم يتمكَّنْ منها في شهر رمضان؛ فليطلبْها في غيره: «إذا جاز من لا يتمكَّن من التلفُّظ في الأدعية، يطلبها في باقي الشَّهر»[١].

٦. «بل يصرف لسانَهُ، وقلبَهُ عن الاختيار الذي كان عليه قبل الظَّفَر بها»[٢].

لعلَّ المُراد من هذه الوصيَّة الإشارة إلى الكتمان على الآخرين، وربَّما لذلك ما ذكره من المعرفة المُتقدِّمة ليستْ واجبةً على الآخرين: «وإن لم يلزمِ العمل بها في ظاهر الشَّريعة النَّبويَّة»[٣].

ولعلَّ من هنا يحتاج الإذن في القول للآخرين، وخلافه يعدُّ إفشاءَ سرِّ المُلوك، كما يقول العطَّار النيشابوريّ:

«أطلعناه على سرٍّ من أسرارنا؛ فأفشى سرَّنا؛ فهذا جزاءُ من يفشي سرَّ المُلوك»[٤].

يقول حافظ الشيرازيّ:

إنَّ الذي شمخ الصَّليب به
في الجرم: كان مُذيعَ سرٍّ قد فشَى[٥]

٧. يصرِّح السيِّد أنَّه يعرف ليلة القدر، وهي رحمةٌ من الله تعالى: «وهي رحمةٌ أدركتْه من ربّ العالمين»[٦].

(١) إقبال الأعمال: ١/ ٦٦.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه: ١٥.
(٤) تذكرة الأولياء: ٨٧١، المراد في هذا الكلام الحسين بن منصور الحلَّاج (٢٤٤-٣٠٩ هـ)، كما هو معروف أنَّه تقوَّل بأقوال، وبسببها قُتِل. (م)
(٥) ديوان حافظ، الغزليَّات: ١٤٣، وهو باللغة الفارسيَّة، والمقصود هنا هو الحلَّاج. (م)
(٦) اقبال الاعمال: ٦٦.

النَّموذج الخامس: حضورهُ في محضر وليِّ الله الأعظم عليه السلام

«وكنتُ أنا بسـرٍّ من رأى؛ فسـمعتُ سـحَرًا دعاءَهُ عليه السلام؛ فحفظتُ منـه منَ الدُّعاء لمن ذكـره (من) الأحيـاء، والأموات: «وأبقهـم (أو قال: وأحيهـم) في عزِّنا، وملكنا، وسُـلطاننا، ودولتِنـا، وكان ذلـك في ليلـة الأربعاء ثالث عـشر ذي القعدة سـنة ثمان، وثلاثين وستّمائة»[1].

يقول الجاميّ:

لي حبيب عربيّ، مدنيّ، قرشيّ
ألمُ عشقه وفراقِه سببٌ لفرحي، ولذَّتي
لا أفهم هذا السرّ! هو عربيّ وأنا أعجميّ
كيف أدَّعي غرامَه ومحبَّته
وهو قرشيّ وأنا حبشيّ!
من الزَّمان الذي صار هو كالشَّمس مشهورًا في الآفاق
أنا صرتُ كالذرَّة في الهواء راقصًا
مع أنِّي بعيدٌ عنه بألف مرتبة، ومرحلة
وجهه في ناظري كلَّ غداةٍ، وعشيٍّ
لا تسألني عن كيفيَّة شراب عشقِه
والله لا تذوق هذه الشَّـراب حتَّى تشربَه
ليس من المصلحة أن أُروى (أرتوي) من ماء الحياة

(١) مهج الدعوات ومنهج العبادات: ١٩٦.

ضاعف الله به كلَّ زمان عطشي

أيها الجاميّ[1] أهل العشق لا يذهبون إلى طريق عشقِه (منَ الخوف)

لا يكون لك رأسٌ إن تخلَّفتَ عن هذا الطَّريق[2]

الطريق الثالث: النَّقلُ

يعدُّ النّقل الطَّريق الثالث للمعرفة، ويحصل بالواسطة، والكسب، وإن كان تركيزُنا على بيان طريق الكشف، والشُّهود، ولكن نغتنم الفرصةَ هنا لبيان رأي السيِّد في الطَّريق.

والهدفُ من هذا الطَّريق هو الوصول إلى معرفة ذاته تعالى، وصفاته، وأفعاله، وتقوية الفطرةِ، والنَّقل يمدُّ، ويُساعد الفطرةَ لمعرفة المبدأ الإلهيّ، ومن هنا فالمعرفة في ضوء مُعطيات النَّقل تزدادُ، وتتقوَّى بمُساعدة الكتب السَّماويَّة، والأنبياء، والأوصياء (عليهم صلوات الله).

يعدُّ السيِّد الفِطرةَ من الطَّرائق الباطنيَّة الداخليَّة، وأمَّا الكتبُ السماويَّة، والأنبياء، والأوصياء عليهم السلام، فهي من الطَّرائق الخارجيَّة الظَّاهريَّة، كما يعتقد أنَّ طريق الفِطرة بمُساعدة الكتب السماويَّة، والأنبياء، والأوصياء عليهم السلام أسهل طريق للوصول إلى المعرفة.

فالسيِّد يعتقدُ انَّ الفطرةَ طريقٌ لمعرفة الله تعالى بدلائل، وتنبيهاتِ الكُتب السماويَّة: «فإنَّك تجد كتبَ الله جلَّ جلاله السَّالفة، والقرآنَ الشَّريف مملوءةً من التَّنبيهات[3] على

(١) يقصد نفسه منشأ هذا الشعر. (م)

(٢) هذه الأبيات للشاعر المحقِّق عبد الرحمن الجامي، وهو باللغة الفارسيَّة. لاحظ: ديوان الجامي، الغزليَّات، رقم: ٩٤١. (م)

(٣) أشار السيِّد على جملة من التنبيهات من القرآن الكريم، لاحظ على سبيل المثال: الأبواب: ١٢٣-١٢٥.

الـدَّلالات عـلى معرفة مولاهم، ومالك دُنياهـم، مُحدث الحادثات، ومُغـيِّر المُتغيِّرات، ومُقلِّب الأوقات»[1].

وأنَّ طريق الأنبياء عليهم السلام مُطابقٌ لما جاء في الكتب السَّماويَّة: «ترى علوم سيِّدنا خاتم الأنبياء، وعلوم من سلَف من الأنبياء صلوات الله عليه وآله، وعليهم، على سبيل كتب الله جل جلاله المُنزلة عليهم في التَّنبيه اللطيف، والتَّشريف بالتَّكليف»[2].

وأنَّ الأنبيـاء (سـلام الله عليهم) كانوا أغنـى أهل مِللهم، سـواء في الأمور الماديَّة أم المعنويَّـة: «لأنَّ الأنبيـاء عليهم السلام أغنى أهل الدنيا بتمكـينِ الله جل جلاله لهم ممَّا يريدونُ منه جل جلاله من الإحسـان إليهم، ومن طريق نبوَّتهم كانوا أغنى أُممهم، وأهل مِلَّتهم، ولولا اللطفُ برسالتهم، ما كان لأهل وقتهم مال، ولا حال»[3].

وأنَّ قـول الأنبيـاء والأوصيـاء عليهم السلام موافـق للفطـرة: «الاعتنـاء بقـول سـابق الأنبيـاء و الأوصيـاء والأوليـاء عليهـم أفضـل السَّـلام موافـق لفطـرة العقـول والأحلام»[4].

مـنَ المُلاحظات في آثار السـيِّد أنَّه ينقل رأيَ غير المعصـوم عليه السلام قليلًا جدًّا وإذا ذكر ذلك، فيكون في خاتمة حديثه؛ فلا يروق للسـيِّد أن ينشـغلَ بالمصـادر غير الدينيَّة؛ فهو يعدُّهـا فاصلةً بينه، وبين المصادر الدينيَّة، وأنَّـه يعتقد أنَّ الأدعية، والمُناجاة، والزِّيارات نحو ارتباطٍ، وعلاقة من دون واسـطةٍ، ومن هنا يقوى احتمال كون عدم ذِكر السـيِّد في سلسلة العُرفاء، أنَّه سلكَ في طريق العِرفان من دون أستاذ (أويسي)[5].

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٤٨.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه: ١٨١.
(٤) المصدر نفسه: ٥١.
(٥) أويسي في تعبيرات الصوفيَّة يُقصد به الشخص الذي لا يأخذ بظاهر المشيخة، وإنَّما مَن استفاد=

يعتقد السيِّد بعد معرفة الله تعالى تأتي معرفة النبيّ صلى الله عليه وآله والأئمّة الأطهار عليهم السلام؛ ثمَّ تأتي معرفة أهل الاستقامة: «إنَّما يُحتاج إلى معرفة صفات هذا المؤثِّر، والصَّانع، ويثبت صفاته عنده بأسهل ما يريد منه مولاهُ جل جلاله من تكليفه بتدبير صاحب الشَّرائع، وتسليمه من القواطع، ومن خسارة عمر ضائع؛ ثمَّ يسلك به سبيل معرفة النبوَّة، والإمامة على قاعدة تعريف النبيّ صلى الله عليه وآله، والأئمَّة عليهم السلام، ومن سلك سبيلهم من أهل الاستقامة؛ فهذا كان كافيًا لمن يريد تحصيل السَّلامة، وسعادة الدُّنيا، ويوم القيامة»[1].

ويعدُّ السيِّد طريقَ علماء الإسلام إلى أواخر ظهور الأئمَّة عليهم السلام مُوافقًا لمنهج القرآن الكريم، والنبيّ صلى الله عليه وآله، والأئمَّة عليهم السلام.

«ومضى على ذلك الصَّدر الأوَّل من علماء المُسلمين، وإلى أواخر أيَّام مَن كان ظاهرًا من الأئمَّة المعصومين عليهم السلام أجمعين»[2].

ولكن ما طرحه العلماءُ بعد بدء الغيبة الكُبرى كان صعبًا على الناس، بعد أن سهَّله الله تعالى ونبيّه صلى الله عليه وآله، وأهل بيته عليهم السلام: «إنَّني وجدتُ كثيرًا ممَّن رأيتُه، وسمعتُ به من علماء الإسلام، قد ضيَّقوا على الأنام ما كان سهَّله الله جل جلاله، ورسولُه صلى الله عليه وآله من معرفة مولاهم، ومالك دُنياهم، وأُخراهم»[3].

ويعتقد: «أنَّ المعرفة محكومٌ بحصولها للإنسان دون ما ذكرهُ أصحاب اللسان»[4].

=بروحانيَّة الرسول المعظَّم أو أحد المشايخ، ومَن اكتسب الفيض وقد طهر باطنه وأضاء بنور المعرفة قلبه. فروزانفر (بديع الزمان)، شرح ونقد وتحليل آثار شيخ فريد الدين محمَّد عطَّار نيشابوري: ٣١. (م).

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٦٨.

(٢) المصدر نفسه: ٤٩.

(٣) المصدر نفسه: ٤٨.

(٤) المصدر نفسه: ٥٣.

ومن مِنظار السيِّد أنَّ الله تعالى: غاية آمال العارفين، إنَّ النبيّ ﷺ، والأئمَّة الأطهار عليهم السلام الواسطة، والإنسان الكامل، والشَّريعة برنامجُ سلوك، ويقوِّي المُبتدئ فطرته بكرم الله تعالى، وينتج من هذه المعرفة: «فإنَّما يكون الثَّواب على استمرار العبد عليها، ولزوم ما يُراد منه بها، ولها»(١).

ويقول في هذا السِّياق: «وقد كان ينبغي يا ولدي محمَّد إذا أراد العالم بالله جل جلاله، وبرسوله صلوات الله عليه وآله، وبالأئمَّة عليهم السلام من عترته، وبشريعته، أن يعرِّف المُبتدئ ممَّن وُلِد على فطرة الإسلام ما يقوِّي عنده ما في فطرته، ويوثِّقه من كرم الله جل جلاله ورحمته، ويعلِّق أملَه بفضلِه، ويدخله تحت ظلِّهِ»(٢).

ثمَّ يُوصي السيِّدُ ولدَهُ، ومن وصل له كتابه في هذا السِّياق: «فأوصيك يا ولدي محمَّد، ومن بلغهُ كتابي هذا ممَّن يعلِّم المُسترشدين إلى معرفة ربِّ العالمين، أن يقوِّي ما عندهم في الفِطرة الأوَّليَّة بالتَّنبيهات العقليَّة، والقُرآنيَّة، والهدايات الإلهيَّة، والنبويَّة، ويقول للمُسترشدين: إنَّما يحتاج إلى معرفة صفات هذا المؤثِّر، والصَّانع، ويثبت صفاته عنده بأسهل ما يريد منهُ مولاهُ جل جلاله من تكليفه بتدبير صاحب الشَّرائع، وتسليمه من القواطع، ومن خسارة عمرٍ ضائعٍ»(٣).

ويقول في موضعٍ آخر مبيِّنًا حال الإنسان، ومراحل معرفته، وتدبير الله تعالى لهُ، والسُّؤال، والطَّلب منَ الله تعالى: «قد عرفت مُحقّقًا قبل بلوغك، وبعد بلوغك أنَّك عالمٌ ببديهيَّات، وعالمٌ بكلِّيَّات، وجزئيَّات ما سعيت في تحصيلها، ولا عرفتَ كيف كان تدبير الله جل جلاله في وصولها إلى عقلك، وقلبِك، وحُلولها، ولا ساعة ورودِها على سرائرك،

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٥٧.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه: ٦٨.

ولا بأيِّ الطَّريق سلكَ الله جلَّ جلالُه بها إلى ضمائرك؛ فكنْ واثقًا بذلك الواهب، وعلِّق آمالَك، وسؤالَك به في طلب المواهب»[1].

وقريبٌ منه ما يذهب إليه السيِّد الخُمينيّ في تحصيل المعارف، وتصفية العُقول، وتزكية النُّفوس[2].

ويخاطبُ السيِّدُ ولدَهُ في كشف المحجَّة: «الحقُّ سبيلٌ واضحٌ واحدٌ، قد دلَّ القرآنُ وجدُّك محمَّد صلَّى الله عليه وآله إليه، ومَن خرج عنه، فإلى غضبِ الله جلَّ جلالُه، وسَخَطه، وهوانه، ونيرانه، والفضيحة العُظمى إذا قدِم عليه»[3].

الرَّابع: طريق العقل

يذكر السيِّد طريقًا آخر للوصول للمعرفة، مع أنَّ حديثَنا عن الكشف، والشُّهود، ولكن لمناسبة ذكر الطرائق ذكرتُ طريقَ العقل الذي يعدُّ الطَّريقَ الرَّابعَ للوصول إلى المعرفة، وسأُشير إلى جملةٍ من المُلاحظات في هذا السِّياق، وإلَّا فالحديثُ عن العقل عند السيِّد يحتاج إلى رسالةٍ مُستقلَّةٍ نتركُها إلى فُرصةٍ أخرى إن شاء اللهُ.

وعندما يذكر السيِّد هذا الطَّريق يشير إلى مباحث الكلام، ولا يتوقَّف عندها؛ فمن مِنظاره ينبغي الرُّجوع إلى طريق الفِطرة؛ فهو يعتقد أنَّ طريق الفِطرة، ينسجمُ مع الفطرة الأوَّليَّة، مع دلائل يسيرة عقليَّة؛ فمن دون مُطالعة ينتج الفهم؛ فهو يذهب إلى أنَّ عُموم النَّاس عن طريق الفطرة تفهم الحقائق بشكلٍ أفضل من طرائق المقولات الكلاميَّة.

ولا بأسَ أن نُشيرَ هُنا الى ما ذكره أبو حامد الغزَّاليّ (ت٥٠٥هـ)، المتوفَّى قبل السيِّد،

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٥٧.
(٢) لاحظ: شرح حديث جنود العقل والجهل: ١٠.
(٣) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٧٢.

في رسالته (إلجام العوامّ عن علم الكلام): «إنَّ تلك التَّقسيمات، والمُقدِّمات، وإثباتها بأدلَّتها الرسميَّة يشوِّش قلوب العوامّ، والدَّلالات الظَّاهرة القريبة من الأفهام على ما في القرآن تنفعهم، وتسكن نفوسهم، وتغرس في قلوبهم الاعتقادات الجازمة»[1].

وكيف ما كان أحد الطَّرائق للمعرفة، هو العقل كالنَّقل طريق مع الواسطة؛ فهو كسبيّ حصوليّ، مع أنَّ طريق العقل يقوِّي، ويُساعد الفطرةَ من منظار السيِّد، إلَّا أنَّ العقلَ عندهُ يتضمَّن إشكالاتٍ يأتي بيانُها في محلِّها.

ولا يخفى أنَّ طريق العقل يختلف عن طريق أهل العرفان؛ فالثَّاني يعتمد الفطرةَ، والقلبَ، وأمَّا طريق العقل، والاستدلال يوصلُنا إلى المعرفة الفلسفيَّة؛ فالحُكماء يعتقدون أنَّ هذا الطَّريق العُقلائيّ، والاستدلاليّ هو كمالُ الإنسان، وجوهر الخلاف بين الحكماء، وأهل العرفان في هذه النقطة، مع أنَّه يمكن الجمع بينهما، ولا محذورَ في ذلك، ويعدَّانِ القلبَ، والعقلَ طريقَينِ، وسلوكَينِ للمعرفة.

مع أنَّ السيِّد لا يُنكر المعرفةَ الكسبيَّة، والنظريَّة، ولكنَّه يعدُّ «أكثر العارفين»[2]، كون عطائِهم للمعرفة من الله تعالى، وبرشادٍ منهُ تعالى.

وأنَّه لا ينفي النَّظر في الجواهر، والأجسام، والأعراض، ويمكن حصولُ المعرفة منها، ولكنَّه طريقٌ طويلٌ، وغيرُ آمنٍ[3].

(١) مجموعة رسائل الغزَّاليّ: ٣١٤.

(٢) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٦٨-٦٩.

(٣) هكذا قال: «واعلم يا ولدي يا محمَّد أيَّدك الله ﷻ بجلال التأييد، وكمال المزيد، أنَّ قولي هذا ما هو ممَّا أقصد به أنَّ النظر في الجواهر والأجسام والأعراض لا يجوز، أو أنَّه ما هو طريق إلى المعرفة على بعض الوجوه والأعراض، بل هو من جملة الطرق البعيدة والمسالك الخطيرة الشديدة، التي لا يؤمن معها ما يخرج بالكليَّة عنها». كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٥٥. (م).

ولـذا نـرى السـيِّد يكـرِّر في وصيَّته لابنـه مُراده مـن أنَّ الفطـرة طريـق الأوَّليَّة، والأولويَّـة لا يعني إلغاء ما عداهُ من الطَّرائق، وضرورة النَّظر، والاسـتدلال؛ بل لعلَّه يصبـح أحيانًا النَّظر واجبًا على المُكلَّف في ما يجب عليـه: «إنَّ كلَّ ما كرَّرته، وأكرِّرهُ من تعريف الله جل جلاله لبعض عبادِه، أو تشريف بزيادة إرشـاده، وإنجاده؛ فما أردتُ، ولا أريد به إسقاط وجوب نظر العبد فيما يجب عليه النَّظر فيه من التَّكاليف، وقد قدَّمت الإشارة إلى هـذا المعنى فيما مضى من التَّعريـف، وإنَّما أكرِّره لتفهيم كلِّ قويٍّ يفهمه، أو ضعيف، أنَّني ما منعت من النَّظر؛ بل النَّظر واجبٌ على المُكلَّف في كلِّ ما يجب عليه فيه نظره، ممَّا لا يدركه إلَّا بالنَّظر، والتَّكشيف»[1].

وأنَّ السـيِّد يعـدُّ المعرفة إمَّا مـن الله تعالى، أو من العبد، أو مـن كِلَيهما: «إنَّ المعرفة بالله جل جلاله، سواء كانتْ من الله جل جلاله، أو من العبد، أو منهما»[2].

ويكتب السـيِّد عن الشَّـخص الـذي لم يتمكَّن من معرفة الله تعـالى بطريق الفطرة الأوَّليَّـة: «لو فرضنا أنَّ عبدًا من عبـاد الله جل جلاله ما جعل له في فطرته الأوَّليَّة أنَّ الأثر دالٌّ عـلى المؤثِّر بالكليَّة، ولا نبَّهه جل جلاله بعد بلوغـه، وكمال عقله على معرفته، ولا على ما يجب عليـه مـن المعارف بشيءٍ من ابتداء فضلـه، ورحمته؛ فإنَّه يجب على هـذا العبد النَّظر فيما يجـب عليه مـن التَّكليف، والتوصُّل في التَّعريف بكلِّ طريـقٍ من طُرق التَّحقيق، وعلى كلِّ وجهٍ، وسبيل من سُبل التَّوفيق»[3].

ويقول: «هو يعلم [العبد] من نفسـه على اليقين أنَّه ما خلق في نفسـه حقيقة النَّظر، ولا حقيقة ترتيبه، وإنَّما وجدَ نفسَـه على الصِّفة التي هي عليها من إدراك حقائق النَّظر،

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٦٨.
(٢) المصدر نفسه: ٥٧.
(٣) المصدر نفسه: ٦٩.

وطرائـق الفِكر، مع علمه البديهـيّ أنَّ ذلك التصوُّر، والإدراك الذي وجد نفسـه عليه ما هو من كسبه، ولا اجتهاده، وإنَّما هو من غيره»[1].

ومن منظار السـيِّد أنَّ الإنسـان الذي يفرط بالاعتماد على النَّظر، والاستدلال فهو بعيـدٌ عن مـكارم الله تعالى، ومراحمـه؛ فلا بدَّ للإنسـان التخلِّي عن رسـوبات ما يخلِّفه النَّظريّ؛ ليتلقَّى المعرفة، ولذا يقول: «واعلمْ يا ولدي محمَّد أقبل الله ﷻ عليك، وكمَّل إحسانه إليك، أنَّ العقول المُستقيمة، والقلوب السَّليمة شهدت شهادة صحيحةً صريحةً أنَّـه لا بدَّ من اسـتناد المُمكنات، والموجـودات إلى فاعلٍ لهـا، لا أوَّل لوجودِه، ويقتضي ظهـور هذه الآثـار المُحكمة الباهرة، والدَّولة المُنتظمة القاهـرة أنَّ فاعلها حيٌّ عالمٌ قادرٌ مختـارٌ حكيـمٌ، وأنَّ وجودَهُ وصفاتِه بذاتـه؛ لأنَّه لو كان ﷻ أو شيء مـن صفاته بغيره، اقتضى ذلك عكس شهادة الألباب بقِدَمه، وأزليَّته، وتمام قُدرته»[2] [3].

مزالق طريق الكسب، والنَّظر:

نشير إلى جُملةٍ من تلك المخاطر، وإليك إيَّاها:

١. الشُّبهات الاحتماليَّة:

«أنَّ المُبتـدئ إذا قـال لـه الأسـتاذ: لا طريقَ لـك إلى معرفـة الله ﷻ إلَّا بنظرك في

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٥٨.

(٢) المصدر نفسه

(٣) ويقـول في موضعٍ آخر: «ومتـى وصل إلى غاية تدلُّ على صانع لوجـوده، فإيَّاه أن يصرف هذا الناظر خاطره، أو يخلِّي سرائره من الاعتماد على مراحم ومكارم صانعه وجوده، فإنَّ القادر بذاته يفتح إذا شـاء على قدر قدرته القاهرة الباهرة، والعبد الناظر القادر بغيره لا يفتح بنفسه إلَّا بقدر قدرتـه القاصرة، وذلـك الفتوح الإلهيّ أقوى اتِّصـالًا، وأبقى كمالًا، وأتمَّ نـورًا، وأعمَّ سرورًا، وأوضـح في الاطِّلاع عـلى الأسرار، وأرجح في عمارة الأفكار». كشـف المحجَّـة لثمرة المهجة: ٦٩. (م).

الجوهر، والجسم، والعَرَض، كما كنا أشرنا إليه، وأنَّ حدوث الجسم لا يثبت إلَّا بالحركة، والسُّكون؛ فإنَّ المُبتدئ أيضًا ما يفهم بفطرته زيادة هذه الأعراض على الأجسام، ولا له دربة بهذا الكلام، ولا يرى بعين رأسه، وإحساسه زيادة الحركة، والسُّكون على الجسم المُنتقل في الجهات، إلَّا بأن يتعبَ في إنفاق كثيرٍ من الأوقات في تصوُّر حدِّ الجسم، وتصوُّر العَرَض، وتحقيق زيادتها على الأجسام، وحفظ ما يتعلَّق بذلك كلّه من معنًى، وكلام، وربَّما وجدت الأستاذ عاجزًا في حدود هذه المعاني المذكورة عن أن يغيِّر ألفاظَها المعهودة المذخورة حتَّى يكاد أن يقلِّد قائلها، وناقلها، ويحتجُّ بأنَّها قول فلان، وفلان، وقولهم كالحجَّة في معانيها.

ثمَّ إذا فهم من أستاذه زيادة الحركة على الأجسام؛ فإنَّه ما يكاد يفهم زيادة السُّكون على الجسم في ظاهر أوائل الأفهام، ولا يدرك على التَّعجيل من أن يلزم من حدوث الحركة، والسُّكون حدوث الجسم العريض العميق الطَّويل؛ فلا يزال غالب حاله يخبط خبطَ عشواء في أدلَّتهم، ومعارضتها بشُبهات احتمالات الأهواء، حتَّى يتمحَّض في اجتهاده عن رجحان ظنٍّ، أو اعتقادٍ ضعيف.

ومتى عرض له طعنٌ قويّ، أعادهُ ذلك الطَّعنُ إلى الاستدلال، والتَّكشيف؛ فتراه مُتردِّدًا في العقائد بين ساكنٍ، وعائدٍ إلى أن يموت لعلَّه يجوز حدوث القوادح، وقد كان قبل ذلك التَّعليم لسكونِه إلى معرفته المؤثِّر جملة سكون اعتقاد قويّ راجح، وكان آمنًا كما صار لا يأمن من تجدُّد المطاعن، والمُعارضات، والقوادح»[1].

ثمَّ إنَّ السيِّد يسلك طريقًا سهلة لإثبات الحدوث بعيدًا عن التَّعقيد: «فكلُّ

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٦٠.

عـارفٍ بهـا بالمُشـاهدة يعلـم أنَّ هـذه الزِّيـادات حادثـات بالضَّـرورة؛ فكيـف يعدل عـن تعريـف حدوثهـا بمثـل هـذا التَّحقيـق إلى الحركـة، والسُّـكون، وهمـا عرَضانِ غير مُشاهدَينِ»[1].

ويعتقـد السـيِّد أنَّ حقيقة الحركة، والسُّـكون وما يلزم منهما يحتـاج إلى نظرٍ دقيقٍ، وتخطِّـي عقباتٍ بالتَّوفيق الإلهيّ: «ولا يعرف حقائقهـا، وما يلزم من حدوثهما إلَّا بنظرٍ دقيقٍ، وقطع عقبات قليلة التَّوفيق»[2].

ويذكر طريقًا واضحًا على معرفة الله تعالى عبر حدوث الأجسام، مُكتفيًا بتنبيهات وإشارات لما جاء به الأنبياء (صلَّى الله على نبيِّنا وآله وعليهم السلام)، والكتب السماويَّة، وهـو مطابقٌ لها: «فـكان ثبوت حدوث الأجسـام على هذا الوصـف الواضح كافيًا في الدَّلالة على أنَّ لها مؤلِّفًا ﷻ، مُحدثًا لها، ومدبِّرا لأمرها بحسـب المصالح؛ فأشار الأنبياء صلـوات الله عليهم، والكتب المُنزلة عليهـم إلى نحوِ هذه التَّنبيهات على هذه الدَّلالات الظَّاهرات»[3].

٢. النَّتيجة غير معلومةٍ وغامضة:

ذكـر السـيِّد في حوارهِ مع أحدهم في ما يتعلَّق في طريق كسـب المعرفة، وأشـار في مباحثتِـه إلى مواطن الخلل في طريقـة النَّظر، ومنها غموضُ النَّتيجـة، وعدم الاطمئنان بـه: «لأنَّـك قبل أن تعرفـه، وشرعتَ تنظر في المعرفـة بنظرك في الجواهر، والأجسـام، والأعـراض، مـا تدري نظـرك هل يفـضي إلى الإقبال عـلى تصديق المعرفـة أو الإدبار عنهـا، والإعراض؛ فلا تكون قاصدًا بنظرك التقـرُّب إلى الله ﷻ؛ لأنَّك ما تعرفه، وإنَّما

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٦٦.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه.

تعرفه على قولك في آخر جزء من أجزاء نظرِك، وقد فات نظرك كلُّه بغير معرفة، وغير ثوابٍ»[1].

ويضيف السيِّد إذًا لا بدَّ من سلك طريق النَّظر، والكسب فعليه: «فيلزم مع اشتغاله إن كان لابدَّ لهُ من الاشتغال على العلماء ذلك الهادي الأوَّل، واهب العقل و الضِّياء، ومُطلق لسان أستاذه بالكلام، وقد كان أخرس، ومسلك الهواء في مجاريه، وبه عاش، وتنفَّس، وماسك ذات أستاذه، وواهب حياته، وماسك ما يحتاج إليه في مطلوباته، وإرادته، والذي أقام أستاذه، وقد كان في صغره يزحف على بطنه، ومن فتح أقفال فهمه، وذهنه حتَّى صار يعرف ما ينفعه فيسعى إليه، وما يضرُّه فينفر عنه، ولا يُقبل عليه»[2].

ويسوق كلامًا بمنزلة الدَّليل على عدم استقرار النَّتيجة في طريق الفكر، والنَّظر: «وربَّما وجدت الأستاذ عاجزًا في حدود هذه المعاني المذكورة عن أن يغيِّر ألفاظَها المعهودة المذخورة، حتَّى يكاد أن يقلِّد قائلها، وناقلها، ويحتجُّ بأنَّها قول فلان، وفلان، وقولهم كالحُجَّة في معانيها؛ ثمَّ إذا فهم من أستاذه زيادة الحركة على الأجسام؛ فإنَّه ما يكاد يفهم زيادة السُّكون على الجسم في ظاهر أوائل الأفهام، ولا يدرك على التَّعجيل من أن يلزم من حدوث الحركة، والسُّكون حدوث الجسم العريض العميق الطَّويل؛ فلا يزال غالب حاله يخبط خبط عشواء في أدلَّتهم، ومعارضتها بشُبهات احتمالات الأهواء، حتَّى يتمحَّض في اجتهادِه عن رجحان ظنٍّ، أو اعتقادٍ ضعيفٍ.

ومتى عرض له طعنٌ قويّ، أعادهُ ذلك الطَّعن إلى الاستدلال، والتَّكشيف؛ فتراه مُتردِّدًا في العقائد بين ساكنٍ، وعائد إلى أن يموت لعلَّه يجوز حدوث القوادح، وقد كان

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٥٦.
(٢) المصدر نفسه: ٥٩.

قبل ذلك التَّعليم لسكونه إلى معرفته المؤثِّر جملة سكون اعتقاد قويّ راجح، وكان آمنًا كما صار لا يأمن من تجدُّد المطاعن، والمُعارضات، والقوادح»[1].

فما كانت هذه حاله، فكيف له يعرف الله ﷻ للآخرين؟!.

ويعبِّر السيِّد عمَّن عدل من الأمر الواضح إلى الغامض؛ فإنَّه ضالٌّ: «كلُّ من عدل في التَّعريف عن الأمر المكشوف إلى الأمر الخفيّ اللطيف؛ فهو حقيقٌ أن يُقال: قد أضلَّ، ولا يقال: قد هدى، ولا قد أحسن فيما استدلَّ»[2].

ويمثِّل لما يفعلُه المُعلِّم بالمُتعلِّم: «كان مثالهم مع المُتعلِّم منهم، ومثاله معهم أيضًا، كمثل إنسان كان بين يديه شمعة مُضيئة إضاءة باهرة؛ فأخذها أستاذه من بين يديه، وأبعدها عنه مسافةً بعيدة، كثيرة الحوائل، والموانع من نظره بتلك الشَّمعة التي كانتْ حاضرة عنده، وقال له: تجهَّز للسَّفر بالزَّاد، والرُّفقاء، والعدَّة، والأدلَّاء حتَّى تصلَ إلى معرفة تلك الشَّمعة، وتنظر حقيقة ما هي عليه من الضِّياء؛ فقبِلَ ذلك المُغترُّ المُتعرِّف من ذلك الأستاذ المُتكلِّف، وسافر مدَّة من الأوقات؛ فتارةً يرى جبالًا، وعقباتٍ؛ فلا يظهر له من حقيقة الشَّمعة كثيرٌ، ولا قليلٌ، وتارةً يرى ضوءًا؛ فيقول: لعلَّه ضوء تلك الشَّمعة، ويستنجد بمُساعدة الرَّفيق، والدَّليل؛ فإن عجز عن إتمام المسافة، وقطع الطَّريق، بما يرى فيها من العقباتِ، والتَّطويل، والتَّضييق، هلك المسكينُ، ورجع خاسرًا للدُّنيا، والدِّين»[3].

ثمَّ يقول عن جماعةٍ هو يعرفهم على هذه الحال: «فقد عرفنا من جماعةٍ أنَّهم أوقعهم ذلك في شكوكٍ، وتضليلٍ، وكان ضلالُهم من سوء توفيق الدَّليل؛ ولئن مشي هذا

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٦٠.
(٢) المصدر نفسه: ٦٦.
(٣) المصدر نفسه: ٦٧

المُسترشـد، واحتمل مشقَّة الأسفار، وركوب الأخطار، وسلم من أن يعجز في الطَّريق، ويترك الشَّـمعة بالكليَّة كثيرًا ما يحصل له إذا وجدها من حقيقتها مثل الذي كان يعرفه في الفطرة الأوَّليَّة؛ فضاع عمرُه، وتعبُه في زيادة معرفتها»[1].

ثمَّ يتحدّث السيِّد عن الطَّالب، وعذره في اختياره للأستاذ، والأخذ منه، والقَبول، تاركًا في ذلك تدبير الله تعالى له: «وما الذي يحمل على التشبُّث بذلك، والعزل في تدبيره لـربِّ الأرباب، وفاطر الأسـباب، وما عُـذر المُبتدئ بقبول ذلك من أسـتاذه، ومَن قد اختاره من عباد الله ﷻ لإرشاده»[2].

ويذهب إلى أنَّ طريق الكسـب، والنَّظَر للمعرفة لا يعدُّ مُستقلًّا، وإنَّما يحصل ذلك من الله ﷻ؛ ثمَّ يحذِّر السـيِّد الشَّخصَ إذا تعرَّف على خالقه، أن يصرف عنه هذا الخاطر، ويوصيـه أن يخلِّي سرائرَه على المراحم، والمـكارم: «ومتى وصل إلى غايةٍ تدلُّ على صانعٍ لوجـوده؛ فإيَّاه أن يصرف هذا النَّاظـر خاطره، أو يخلِّي سرائره من الاعتماد على مراحمَ، و مكارمَ صانعهِ، وجوده»[3].

وقال في موضـعٍ آخر في الاعتماد على العقول، والقلوب: «ولقد كان الله ﷻ أعذر إليهم، وركب الحجَّة عليهم، بما أراهم في العقول، والقلوب من مماتها بالنِّسـيان، وكثرة آفاتهـا، وتفاوت إرادتها بما يظهر في تصرُّفاتها مـن النُّقصان ما كان كافيًا في ترك الاعتماد عليها، مع سقم الغفلة عنه ﷻ بالاستناد عليها»[4].

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٦٧.
(٢) المصدر نفسه: ٥٨.
(٣) المصدر نفسه: ٦٩.
(٤) لأ باس أن أنقل تمام عبارته: «لقد وجدت الفلاسفة وأكثر من ضلَّ بغير عناد، أنَّ ضلالهم كان من طريق التوكُّل والاعتماد على العقول والقلوب، والاجتهاد مع الغفلة عن سلطان المعاد، ولقد كان الله ﷻ أعذر إليهم وركب الحجَّة عليهم بما أراهم في العقول والقلوب من مماتها بالنسيان=

ويعتقد السيِّد يمكن تنسيق العقل، والقلب والجوارح في العمل لله ﷻ، ومع أنَّ عمل جوارح الانسان وجوانحه بمدٍّ منه تعالى، حينها يفتح عليه من أنواره ﷻ: «فيكون عملُك بالله ﷻ على ما يفتحه ﷻ من الأنوار»[1].

ويستند في ذلك إلى قوله تعالى: «وقال الله ﷻ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾[2].

فهل ترى يا ولدي المعرفة بالله، إلَّا من الله وبالله، وأنَّه ﷻ هو الذي هدى للإيمان بمُقتضى القرآن[3]، وأنَّه هو صاحب المنَّة في التَّعريف، وأنَّه لولا فضلُه، ورحمته، ما زكى من أحد في تكليفٍ»[4].

=وكثرة آفاتها، وتفاوت إرادتها، بما يظهر في تصرُّفاتها من النقصان ما كان كافيًا في ترك الاعتماد عليها، مع سقم الغفلة عنه ﷻ بالاستناد عليها، مثاله أنَّه يجمع عقليّ وقلبيّ ونفسيّ وطبعيّ على سطر كتاب، فإذا فرغت منه رأيت فيه شيئًا قد كتبته على خللٍ بعيدٍ من الصَّواب، حتَّى لو بقي ذلك لغلط في مرادي منه، فإذا كان ذلك ممَّا يعلمه العبد من حاله، فواجب عليه أن لا يثق بغير مولاه، ولا يعدل أبدًا عنه، فلمَّا رأيت عقلي وقلبي يغفلان وينسيان من حيث لا أدري، ويحصل بذلك ضرِّي وكسري، وجدتهما لأجل ذلك لا يصلحان للاهتداء والاقتداء، وسألتهما بلسان الحال: مِن أين يعرض لهما حصول هذا الداء؟ فقالا: لا ندري، ولا طريق لنا إلى مأمول كمال الشفاء، إلَّا من جانب يعرف من أين طرأ علينا أصل هذا البلاء، فأجمع رأيي ورأيهما على مداكف السؤال بلسان الحال إلى كعبة كرم منشئ العقول والقلوب، ومالك الآمال، في أن يدخلنا في ظلِّ حمى حمايته، ويؤهِّلنا لما هو ﷻ من رحمته، فوجدنا منه ﷻ كما أردناه وزيادات على ما رجوناه، ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾، فكيف أشكر أنا مولى هذا بعض ما أولاه..». جمال الأسبوع بكمال العمل المشروع: ٤. (م).

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٢٠٠.

(٢) سورة النور، الآية: ٢١.

(٣) لعلَّه اشاره إلى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ سورة إبراهيم، الآية: ٤.

(٤) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٥٣.

ويقترح السيِّد إذا اشتبه عليك شيءٌ من المسائل العقليَّة؛ فعليك بالخَلوة، والتَّذلُّل لله ﷻ في حلِّها، فتجده كاشفًا لك لبسها: «متى اشتبه عليك شيءٌ من نتائج العقول؛ فالزمِ الصَّومَ، والخلوة، والتذلُّل للقادر ﷻ على كلِّ مأمول؛ فإنَّك تجده ﷻ كاشفًا لك ما اشتبه عليك، وباعثًا إلى عقلك، وقلبك من أنوار هدايته ما يفتح أبواب الصَّواب لديك»[1].

٣. معرفة الله تعالى:

بعدَ ما تقدَّم الحديث عن طرائق الوصول إلى المعرفة، نشير إلى معرفة الله تعالى في فكر السيِّد العرفانيّ.

تعدُّ معرفة الله تعالى من أهم العلوم، وأكثرها قيمةً؛ بل تكامل الإنسان بها، ولا يحصل تكاملٌ من دونها، كما أنَّ السيِّد يعتقد بالاحتياج إلى الله تعالى في هذه المعرفة، ويعدُّ هذه المعرفة تكليفًا، وتأتي أهميَّة هذا الاحتياج في نظر السيِّد؛ لأنَّه استجابةٌ لذلك التَّكليف[2]، كما أنَّ معرفة الله ﷻ حقيقةٌ تقع في امتداد الشَّريعة، والطَّريقة، وهي ما تحصل بعد التَّقرُّب، والوصول.

ويعدُّ السيِّد التَّكليفَ شرفًا، ومن أعظم المِنن الإلهيَّة، ويعجز عنها شكرُ الشاكرين: «إنَّ تشريف الله ﷻ لك بتكليف معرفته، ومعرفة رسوله صلوات الله عليه، والأئمَّة من ذريَّته عليهم السلام، ومعرفة شريعته، والقيام بطاعته، كان من أعظم مِننه ﷻ عليك وإحسانه إليك، التي لا يقوم لها شكرُ الشاكرين، ولا يقضي حقوقها اجتهادُ المُجتهدين»[3].

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٥٣.
(٢) المصدر نفسه: ٦٩.
(٣) المصدر نفسه: ٧٥.

«فالله الله يا ولدي في معرفة حقِّ إمساكه، ورحمته، ونعمته، وما لا يحصيه من حقوقه العارفون، والمُكاشفون»[1].

وأحاول في هذا القسم البحثَ عن الأصول العلميَّة للعرفان من مِنظار السيِّد، وقد أشار السيِّد، سواءٌ في الأصول العلميَّة، أو العمليَّة في سلوكه، بأنَّه إلقاء من الله ﷻ: «وحيث قد ذكرت لك يا ولدي بعض ما أجراهُ الله ﷻ على خواطري في أدبِ الحركات، والتَّصرُّفات»[2].

أتناول في البداية موضوعًا أساسًا، وهو التَّوحيد (التوحيد النظريّ) الذي يعدُّ من أهمِّ الموضوعات، وجعل منه السيِّد موضوعًا رئيسًا في العرفان العلميّ، كمعرفة الله ﷻ.

٣-١ التَّوحيد (التَّوحيد النظريّ):

يعدُّ البحث عن التَّوحيد بكلِّ مراتبِه من مسائل علم الكلام، كـ: التوحيد النظريّ، والذاتيّ، والصِّفاتيّ، والفعاليّ، وكذا التَّوحيد العمليّ، كالتَّوحيد في العبادة، مع الاختلاف الجوهريّ بين ما يطرحهُ المُتكلِّمون[3]، وما يبحثه العرفاءُ في هذه المسائل التي تعدُّ من أمَّهات المسائل عند العُرفاء، كما لا يخفى.

لم نلحظْ في آثار السيِّد مصطلَحَي التَّوحيد النظريّ، والتَّوحيد العمليّ، ولكن كان مُلتفتًا إلى تلك المراتب في كتاباته.

نقل العلَّامة محمَّد حسين الطباطبائيّ، صاحب الميزان، عن أستاذه السيِّد عليّ القاضي: «يعدُّ السيِّد من جملة الشخصيَّات[4] الذي له تمكُّن

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٤٦.
(٢) المصدر نفسه: ١٧٨.
(٣) بالحقيقة تعدُّ هذه المسائل أيضًا من مسائل الفلسفة. (م)
(٤) وذكر السيِّد أيضًا السيِّد بحر العلوم، وابن فهد الحِلِّيّ.

في التوحيد»[1].

وعليه سنشير هُنا إلى مراتب التَّوحيد بنحوٍ ترتيبيّ في فكر السيِّد.

٣-١-١ الأصل الأوَّل: التَّوحيد في الذَّات والصِّفات

يعتقد السيِّد أنَّ مِقدار معرفته تعالى وذاته، وصفاته بقدر ما منحك الله تعالى من فضلٍ لذلك: «أن يكون الله ﷻ في قلبك، وعند عقلك عظيمًا على قدر ما وهبك من معرفة ذاته، وصفاته الكاملة»[2]، وكذا ما ذكره من معرفة أوَّل الشهور، وأنَّه فضلٌ من الله ﷻ، وعدَّ هذه المعرفة من المعارف اللقائيَّة: «واعلمْ أن الله ﷻ تفضَّل علينا بأسرارٍ ربَّانيَّة، وأنوارٍ محمَّديَّة، ومبارٍّ علويَّة، منها تعريفنا بأوائل الشُّهور، وإن لم نشاهد [يشاهد] هلالها، وليس ذلك بطريق الأحكام النُّجوميَّة، ولا الاستخارات المرويَّة؛ وإنَّما ذلك، كما قلنا، بالأمور الوجدانيَّة الضَّروريَّة»[3].

وكذا من أنَّه يعرف ليلة القدر، كما صرَّح بذلك[4]، وكذا معرفة الله تعالى وذاته، وصفاته، والرَّسول الأعظم ﷺ، والأئمَّة الأطهار عليهم السلام، ونلاحظُه عندما يقايسُ بين المعارف، يقول: «وليستْ بأعظم من رحمة الله ﷻ بمعرفة ذاته المُقدَّسة، وصفاته المُنزَّهة، ومعرفة سيِّد المُرسلين، وخواصِّ عترته الطَّاهرين»[5].

«إنَّ تشريف الله ﷻ لك بتكليف معرفته، ومعرفة رسوله صلوات الله عليه، والأئمَّة من ذريَّته عليهم السلام، ومعرفة شريعته، والقيام بطاعته، كان من أعظم مِنَنِهِ ﷻ

(١) أدب حضور: ٢٨. (فارسي).
(٢) فلاح السائل: ١٠٠
(٣) إقبال الأعمال: ١/ ١٥.
(٤) لاحظ: مهج الدعوات ومنهج العبادات: ١٩٦.
(٥) إقبال الأعمال: ١/ ٦٦.

عليك، وإحسانه إليك، التي لا يقوم لها شكرُ الشَّاكرين، ولا يقضي حقوقها اجتهادُ المُجتهدين»[1].

ويعتقد السيِّد أنَّه لا يمكن معرفة ذاته تعالى، وصفاته على التَّحقيق؛ لأنَّه لا يمكن إحاطة المحدود بلا محدودٍ[2].

انتهى القسم الأوَّل.

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٧٥.

(٢) لاحظ: فلاح السائل: ١٠٠.